٧

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التاسع بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٦ — ٢ شعبان سنة ١٣٦٥

ألبرت أينشتين
واستخدام الطاقة الذرّية في الحروب

ولد ألبرت أينشتين في مدينة « أولم » بألمانيا سنة ١٨٧٩ . ونال جائزة نوبل للبحوث الفوزيقية سنة ١٩٢١ ، واضطر الى أن يذهب للمنفى باختياره عند ما تسنم هتلر أوج القوة في المانيا ، فوفد الى الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٣٣ ، حيث عين عضواً مدى الحياة في معهد الدراسات العليا في جامعة برنستون ، ونال الرعوية الامريكية سنة ١٩٤٠ ، وفي الثاني من اغسطس سنة ١٩٣٩ ، وقبل أن تشتعل نار الحرب العظمى الثانية بشهرين ، كتب اينشتين كتاباً يعد الآن من وثائق التاريخ . كتب الى الرئيس روزفلت يقول : « ان بحوثاً حديثة قام بها الاستاذ « فرمي » Fermi والاستاذ زيلارد Szilard ، وقد وصلتنى نسخة مخطوطة منها ، جعلتنى أعتقد أن عنصر « الاورانيوم » قد يمكن تحويله الى منبع للطاقة ذي أهمية كبيرة في المستقبل القريب » . ومضى أينشتين يقول : « ان هذه الظاهرة الجديدة قد تؤدي الى صنع قنابل شديدة الفتك عظيمة القدرة ، وان قنبلة واحدة من هذه القنابل اذا حملتها سفينة وقذفت بها ميناء ، من الممكن أن تحطمه تحطيماً مع جزء كبير مما يحيط به . ونحن ننقل هنا حديثاً لاينشتين عن استخدام الطاقة الذرية بعد أن أصبحت حقيقة واقعة وعن احتمالاتها القريبة .

— ١ —

ان اطلاق الطاقة الذرية لم تخلق مشكلة جديدة ، بل انها خلقت ضرورة جديدة لا غير ، هي ضرورة حل مشكلة قديمة كانت قائمة بالفعل . على هذا نستطيع أن نقول إننا تأثرنا بها « كمّاً » لا « كيفيّاً » . فانه ما دام في الدنيا أمم كبرى تسود العالم وبها قوة ، فان الحرب لا بدّ واقعة حتماً . ولا نقول هذا القول لنحدس متى تقع الحرب ، ولكن لنقول بأن

الحرب لا بدَّ آتية . إن هذه الحقيقة كانت ماثلة للناس قبل اكتشاف القنبلة الذرية ، أما الذي تغيّر فهو نتائج الحرب من حيث التخريب والدمار .

اني لا أعتقد أن الحضارة سوف تفنى إذا ما قامت حرب أساسها التراشق بالقنابل الذرية . يحتمل جداً أن ثلثي سكان الأرض سوف يموتون ، ولكن سيبقى بعد ذلك قدر منهم ، فيهم القادرون على التفكير ، وبين أيديهم من الكتب ما يستأنفون به العمل ثانية في سبيل الحضارة لتقوم مرة أخرى .

ولا أوصي بأن يُفْضَى بسر القنبلة الذرية الى مجموعة الأمم المتحدة ، كما أوصي بأن لا يعطى هذا السر الى الاتحاد السوفيتي . ان كلا الأمرين مثله كمثل رجل عنده رأس مال أراد أن يشرك آخر معه في مشروع ، فبدأ باعطاء نصف رأس ماله لشريكه هبة بغير مقابل، فأخذه هذا ، ومضى ينفذ مشروعاً آخر ينافسه به ، في حين أن الهبة كانت لتحقيق التعاون لا المنافسة .

ان سر القنبلة الذرية ينبغي أن يعهد به الى حكومة عالمية ، وينبغي لحكومة الولايات المتحدة الامريكية أن تعلن فوراً استعدادها بأن يُفْضَى بهذا السر الى هذه الحكومة العالمية إذا أُلِّفت . أما هذه الحكومة فتتألف من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى — وهي الدول الثلاث التي في مستطاعها الآن أن تشن الحرب ، على أن تضع هذه الدول كل قوتها الحربية تحت تصرف هذه الحكومة وتجعلها خاضعة لها دون غيرها من السلطات . وحقيقة أن في العالم ثلاث دول يتقاسمنَ القوة الحربية في العالم ، أمرٌ يجعل تأليف مثل هذه الحكومة أمراً هيناً غير عسير .

ولما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى هما صاحبتا سر هذه الطاقة ، فعليهما أن يكلفا حكومة الاتحاد الروسي وضع مشروع هذه الحكومة والقواعد التي يقوم عليها . على أن هذه الخطوة من شأنها أن تخرج من روع روسيا كثيراً من الشك الذي يبديه الروسيون من جراء الاحتفاظ بسر الذرة وطريقة استعمالها في الحرب . ولن يكون أول مشروع تضعه روسيا نهائيًا ، ولكن الواقع أن ذلك يجعل روسيا تحس أن هذه الحكومة العالمية يمكن أن تحقق سلامتها .

وانه لمن العقل أن يعهد ببحث هذا المشروع الى ثلاثة رجال،أمريكي وانجليزي وروسي. ولا بد لهم من نصحاء ومشيرين ، ولكن هؤلاء ينبغي أن يظلوا بعيدين عن لب البحث الاّ إذا طلب اليهم الافضاء بارائهم . اني لأعتقد أن ثلاثة رجال يكفون لوضع دستور عملي تقبله الدول الثلاث . أما إذا زاد عدد الذين يقومون بوضع المشروع على هذا العدد ، الراجح أن يفشل المشروع ولا يقوم .

بعد أن تضع الدول الثلاث الكبرى أصول هذا المشروع وتتمه ، تدعى الدول الصغرى الى المشاركة فيه ، فتصبح هذه الدول أعضاء في الحكومة العالمية ، لهم حسناتها وعليهم مسئولياتها . على أنه ينبغي أن تكون لهنَّ حرية الاختيار في الاشتراك أو في البقاء خارج هذا النظام . وبرغم اعتقادي أنهنَّ سوف يشاركنَ فيه ، فانهنَّ سوف يشعرنَ بالأمن والطمأنينة اذا لم يشتركنَ . ومن الطبيعي اذا دعينَ أن يكون لهنَّ حق ابداء ملاحظاتهنَّ على المشروع بعد أن تمده الدولات الثلاث الكبريات . ولكن الدول الكبرى ينبغي عليهنَّ أن يقدمنَ على تأليف هذه الحكومة العالمية ، اشترك الصغريات فيه أم تنحينَ عنه.

من الطبيعي أن يكون للحكومة العالمية حق السيطرة على كل القوى الحربية ، مضافاً الى ذلك حق آخر ، هو حق التدخل فيما اذا نشأت أقلية في بلد من البلدان واستبدت بالأكثرية وعملت جاهدة في بذر أصول الحرب . فالحالات مثل تلك الحالات القائمة في اسبانيا والأرجنتين ينبغي التدخل فيها . يجب أن يقضى قضاء تامًّا على مبدأ « عدم التدخل » . ذلك بأن القضاء عليه ضمان ضروري للسلم .

إن مشروع تأليف الحكومة العالمية لايجب أن يظل معطلاً حتى تتعادل كفّات النظام الحر في الدول الكبرى . فانه بالرغم من أن روسيا لا تزال الى الآن محكومة بأقلية دكتاتورية ، فاني لا أتصور أن يكون النظام الداخلي في أية أمة من الأمم مهدداً للسلام العالمي . وكذلك يجب أن نعي أن الشعب الروسي لم يمارس التعليم السياسي مدة طويلة ، والتغيرات المطلوبة لتحسين الأحوال في روسيا ، ينبغي أن تقوم عليها أقلية ، ذلك بأنه ليس هنالك من أغلبية تضطلع بها . ولو انني ولدت روسيًّا إذن لعملت على أن أهيء نفسي لقبول هذه الحال .

وليس من الضروري في تأليف نظام حكم عالمي من خصياته أن يحتكر السلطة الحربية ، أن تتغير الأوضاع الداخليـة القائمة في كل من الدول الثلاث الكبرى . فعلى الثلاثة الذين يختارون لوضع قواعد هـذا النظام ، أن يراعوا ظروف كل دولة ويصبون النظام في قالب يحقق تضامنهن جميعاً .

— ٢ —

هل لي أن أخشى استبداد هذه الدول الثلاث بأمور العالم ؟ طبيعي جـداً أن أفعل . ولـكني أشد خشية من وقوع حرب أو حروب أخرى .

إن أية حكومة مهما كان شكلها هي بذاتها شر إلى حد محدود ولـكن حكومة عالمية مهما كانت شرورها هي أهون عنـدي من شر الحروب ، وبخاصة بعد أن تبين لنا مدى قدرتها على التحطيم والهدم والتخريب . وان حكومة عالمية إذا لم تتألف اختياراً وبمقتضى الاتفاق بين الدول ، فاني أعتقد انهـا سوف تؤلف برغم ذلك ، ولـكن بطريقة بالغة الخطر ذريعة النتائج . ذلك بأن حرباً أو حروباً إذا وقعت أدَّت حتماً الى تسوّد دولة بعينهـا وتسلطها وتفردها بالقوة الحربية تفرداً يشمل العالم كله .

أما وقد حصلنا على سر الذرة ، فلا ينبغي لنا أن نفقده ، كما لا ينبغي لنا أن نخاطر بالافضاء به الى هيئة الأمم المتحدة أو الاتحـاد السوفيتي . ولـكنه يجب علينا الى جانب هـذا أن نوضح للعالم وفي أقرب وقت ، اننا لا نحتفظ بسر الذّرة لنتخذ منه سبيلاً الى القوة والقهر ، بل ابتغاء تأليف حكومة عالمية تحافظ على السلام ، واننا سنعمل بأقصى ما يصل اليه جهدنا الى جعلها حقيقة واقعة .

اني أقـدِرُ رأي أولئك الذين يقولون بالتدرج في تأليف حكومة عالمية بأن نجعلها الهدف الغائي لأعمالنا وسياساتنا . أما الخطر الذي أراه في الأخذ بطريقة التدرج فينحصر في أنه في مدى الفترة التي نتدرّج فيها نحو تحقيق ذلك الهدف الغائي ، سنضطر الى الاحتفاظ بسر الذرة ، من غير أن نقنع غيرنا ممن لا يملـكون سرها بحسن نيتنا . وهذا وحده كافٍ لخلق جو من الخوف والريبة ، وهو ولا شك يؤدي الى انتكاس خطر من علاقات الدول الكبرى إذ تظل في حالة تنافس وتنابذ مستمرين . وبذلك يخطىء الذين يتخيلون أنهم يضعون أساس

السلم العالمي ، لأنهم بتهاونهم وتقاعسهم في هذا الشأن انما هم يعملون على تمهيد السبيل الى حرب تالية . وليس لنا من وقت نضيعه سدًى الآن . فاننا إذا أردنا أن نتجنب الحرب ، وجب علينا أن نعمل مسرعين .

على اننا سوف لا نتفرد بسر الذرة طويلاً . واني لأعرف أن كثيرين يعتقدون أن غيرنا من الأمم ليس عندها ما يكفي من المال لتنفقه في سبيل الوقوف على سر القنبلة الذرية، وان ذلك وحده يكفي للاقتناع بأننا سوف نحتكر سرها زمناً طويلاً . على انه من أكبر الأخطاء الشائعة في هذه البلاد أن نقيس الأشياء بمقتضى ما تتكلف من مال . على أن غيرنا من البلاد التي تملك المواد والرجال في استطاعتها أن توجه جهدها الى اكتشاف سر الذرة وأن تستكشفه إذا هي عقدت العزم على ذلك . فان المواد والرجال والارادة هي العوامل الأولى في النجاح ، لا المال .

إني لا أعتقد أني الأب الروحي لاطلاق الطاقة الذرية . إن أثري في هذا العمل جاء بطريق غير مباشر . وكذلك أقول إني لم أتوقع أن تطلق تلك الطاقة في زماني . وكل ما خيل اليّ في هذا الأمر أن اطلاق هذه الطاقة ممكن نظريًا . ولكنه أصبح واقعاً بطريق المصادفة ،وبمقتضى حقائق طبيعية لم أتصوَّرها .وقد استكشفها «هاهن» في برلين ، ولكنه أساء تفسير ما استكشف . أما الذي فسرها التفسير الحقيقي فهو « ليز ميتنر » Lise Meitner وقد هرب من ألمانيا ليفضي بالسر الرهيب الى « نيلز بوهر » Niels Bohr

***

لا أعتقد أننا مقدمين على تحقيق عصر العلم الذري اذا نحن عهدنا بالبحث إلى جماعات كبيرة من العلماء على غرار الاتحادات الكبرى القائمة الآن ، ان الانسان في مستطاعه أن يفعل ذلك في شيء تمَّ استكشافه ، ولكن أن تستكشف شيئاً جديداً فليس ذلك سبيله . ان الفرد الحر وحده هو الذي يستطيع أن يقع على كشف جديد . نعم : ان هنالك طريقة لتنظيم العمل ، ولكنها غير طريق الجماعات ، بل هي طريق الأفراد بأن يعطوا من الحرية ويهيئوا بحالات تجعلهم قادرين على العمل والبحث . فأساتذة العلم في أمريكا مثلاً ، ينبغي أن يتفرغوا بعض الشيء من مهام التدريس ليمكنوا على موالاة البحث والاستمرار فيه .

فهل لك مثلاً أن تتصوَّر أن جماعة من العلماء في مستطاعهم أن يصلوا مجتمعين الى مثل الـكشوف التي وصل اليها شارلز دروِن ؟

وبالاضافة الى ذلك أشك في فائدة تلك الاتحادات الـكبيرة في الولايات المتحدة لحاجات هذا العصر . فان زائراً من سيار آخر لو أنه هبط على هذه البلاد ، أفلا يدهش من القوة التي تتمتع بها هذه الاتحادات من غير أن يكون عليها من المسئولية قدراً يناسب تلك القوة؟ أقول هذا لأثبت ضرورة أن تحتفظ الحـكومة الأمريكية بسر الطاقة الذرية ، لا لأن الاشتراكية أمرٌ غير مرغوب فيه ضرورة ، بل لأن هذه الطاقة قد استكشفتها الحـكومة، ومن الحمق أن يعطى هذا الشيء وهو ملك عام للشعب الاميركي أو الى أي فرد أو أي مجموع من الناس . أما من حيث الاشتراكية ، فانها اذا لم تكن دولية الى حد العمل على تأليف حكومة عالمية تأخذ في يدها كل القوى الحربية، ففي الغالب تكون أداة أكثر تسبيباً للحرب من الرأسمالية ، ذلك بأن الاشتراكية تمثل نظاماً أكثر تركيزاً للقدرة في أيدٍ قليلة .

أما أن أقدّر متى تصبح الطاقة الذرية مطبقة في الحاجات والأغراض الانشائية ، فذلك مستحيل . إن ما هو معروف حتى الآن ينحصر في كيفية استعمال كمية كبيرة من الاورانيوم. أما استخدام كميات صغيرة منه بحيث تكون كافية للعمل لتسيير سيارة أو طائرة، فأمرٌ مجهول حتى الآن . واني لا أشك في أن ذلك سوف يكشف حجابه ، ولكن من العسير أن يتنبأ انسان متى يكون ؟

كذلك لا يستطيع انسان أن يتوقع متى يمكن توليد الطاقة الذرية من مادة أكثر ذيوعاً من الأورانيوم . وبديًّا أقول أن المواد التي يمكن أن يحصل منها على الطاقة الذرية ، لابدَّ من أن تـكون من بين العناصر الثقيلة ذوات الوزن الذري الـكبير . وهذه العناصر قليلة نسبيًّا ، لأنها أقل ثباتاً من غيرها . على أن أكثر هذه المواد ربما تكون قد زالت وفنت بسبب ما فيها من النشاط الاشعاعي . واستخدام الطاقة الذرية ، ولو انه سوف يكون نعمة سابغة على النوع البشري ، فان ذلك سوف يتأخر بعض الوقت .

وإني لأعجز عن أن أعبر تعبيراً جيداً عن الحاجات السريعة والمشكلات التي تواجه النوع البشري الآن . وكذلك فاني أحيلهم الى كتاب « إمري ريفز » Emery Reves الذي عنوانه:

The Anatomy of Peace فانه كتاب مختصر مفيد واضح الأغراض ، وفيه عرض شائق لما أدعو اليه من نظام الحكومة العالمية .

***

بالرغم من أني لا أعتقد أن الناس سوف ينعمون قريباً بما سوف تهديهم اليه الطاقة الذرية ، فاني أقول انها في هذا العصر داهية دهياء . فانها قد تحول دون السلالة البشرية أن تصل الى نظام مّـا في المسائل الدولية ، ما لم يأخذ الخوف والفزع بخناق الشعوب

المجلس القومي

National Assembly. — Assemblée Nationale (fr.)

في التاريخ الفرنسي :

أول الجمعيات الثورية ، وقد ظل مسيطراً على فرنسا من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٧٩١ ويتلخص تاريخه في أن « مجلس الطبقات States-General انتخب في سنة ١٧٨٩ وافتتح فى ٥ من مايو ، وفي شهر يونيه طغت الطبقة (Estate) الثالثة على الطبقتين الاخريين ، أي العامة ، على النبلاء ورجال الدين ، وتسمت باسم « المجلس القومي » وانحصر عملها في وضع الدستور فسميت « المجلس التأسيسي » (Constituent Assembly) .

وهناك جمعيتان فرنسيتان دعيتا بهذا الاسم . الاولى : الجمعيـة التشريعية التي ألفت فى فرنسا بعد ثورة سـنة ١٨٤٩ ، والثانية : الجمعية التي التأمت سنة ١٧٨١ بعد سـقوط القيصرية الثانية ..

خريف

للشمس خلف مطارف السُحُب   صورٌ تثير مكامن الرِيَب
فكأنها والغيم يحجبها   عينٌ مسهدةٌ من الوصب
وشعاعها ذوب النضار همى   أو صَيِّبٌ من عارض اللهب
ينساح صوب النور منهمراً   ويفيض في الآفاق عن صبب
والغيم لجٌّ ضلَّ ساحله   فأغار كالمحموم عن غضب

***

نشر الصباحُ دفين ما كتمت   في صدرها الدنيا من الكُرَبِ
فانزاح ستر الليل عن صور   شتى وعن أشجان منتحب
يا هول ما تخفي الحياة من الـ   أحزان خلف مطارف قُشُب
ما أشرقت شمس على بلدٍ   الاَّ وضجَّ القومُ بالحرب

***

هتك الخريفُ غلالة عجباً   من نسج ما نظمت يد السحب
ومضى يفحُّ بكل رابيةٍ   من كل داء غير مرتقب

فارتاعت الأفنان واصطفقت عن رعشة من صدر مضطرب
وتناثرت أوراقها بدداً كمدامع من جفن مغترب
تتساقط الاوراق عن فننٍ كمهيض جنح حطَّ من لغب
أو كالفراشة آنست قبساً في ليلة ظلماء عن كثب
فهوت ترامى بالجناح على قبسٍ من النيران ملتهب
للغصن من شجن اذا عصفت ريح به أشجان مكتئب
تترنح الاغصان مائلة كترنح السكير من وَصَب
وتمدُّ فوق شتيت ما نثرت من نورها الارواح كفَّ أب
أوراقها فوق الثرى بدد وعلى الربى نهب لمحتطب

***

آمالنا ورق تَقَاذَفُه يد عابثٍ في لجة الحقب
وشبابنا الفينان فاكهة لكنها نهبٌ لمغتصب
أسفاً : أكل شبيبة سمقت تجتذ دوحتها يدُ العطب ؟

دمشق عدنان مردم بك

ساروجيني نايدو

شاعرة الهند وروحها الحائر

في الهند ألوف من النساء كلهنّ باسم « ساروجيني » ، فانه اسم محبب عند الهنود . ولكن في الهند « ساروجيني » واحدة ، هي القيثارة الربانية التي يقف عندها جميع أهل الهند ينصتون إذا ما انطلقت بألحانها الشجية .

هذه القيثارة « ساروجيني نايدو » من أسرة برهمية قديمة من شرقي بنكاله . استقرّ المقام بأبيها دكتور « شاتُو بدْهايا » وأسرته في « حيدر اباد » بمقاطعة « الدَّكَن » ، وهناك ولدت « ساروجيني » في الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكانت أمها امرأة عاقلة عطوف ، فنشأت شاعرة المستقبل في طفولة هادئة سعيدة وسط أسرتها الكبيرة المؤلفة من عدّة اخوة وعدّة أخوات .

ساروجيني نايدو

كانت « ساروجيني » أوّل نشأتها فتاة لامعة الذهن ذكية الفؤاد نشيطة الحركة ، ولقد لبسها شيطان الشعر وهي في أوليات سنيها . فلما كانت في الحادية عشرة من عمرها ، تغنت بأول أشعارها ، وكأنها كانت تنطق بلغة شاعر عربي حديث إذ يقول :

للحب أول أشعار هتفت بها ... وللجمال بها أولى رسالاتي [1]

---

(١) البيت للشاعر علي محمود طه والبيتان السابقان هما :

جددت ذاهب أحلامي ولیلاتي ... فهل لديك حديث عن صباباتي

يا كعبة لخيالاتي وصومعة ... رتلت في ظلها للحسن آياتي

للحب أول أشعار هتفت بها ... وللجمال بها أولى رسالاتي

وبدأت في الثالثة عشرة تنسج قصيدة مطولة على غرار قصيدة سير « وولتر سكوت » : سيدة البحيرة : "Lady of the Lake" ، وأخذت تكتب « مأساة » قصيرة : ووفدت الى انجلترا في سنة ١٨٩٥ ، ودرست في كلية « كسجس » بلندن ، وفي كلية « غرتون » بكمبردج ولكن سوء صحتها حملها على القفول ثانية الى الهند بعد ثلاث سنوات .

***

ابتعدت « ساروجيني » عن ان تطرق الموضوعات « الغربية » ، وانطوت على الهند تستلهمها الوحي وتستمد منها مادة القوافي . فأخذت تكتب عن أسواق الهند وعن أعيادها وعن مناظر أرضها الأولى وخلجات نفسها تتجه نحو كل ما هو هندي ، فصاغت في لغة أهل التاميز مجموعة من الاشعار فيها كل نبضات الشرق الحزينة المتوثبة نحو الكمال ، فحلقت بها تلك الأنغام الشجية الى سماوات أفعمت سماء الغرب كله . أما الجمال الذي تخلعه أشعارها على مجالي الهند ، فمن الأسباب الأولى التي طيرت اسمها في آفاق الخلود .

وظهر للشاعرة ثلاثة كتب : الأول « العتبة الذهبية » : The Golden Threshold ، والثاني « طائر الزمان » : The Bird of Time ، والثالث : « الجناح الكسير » : The Broken Wing

***

في سنة ١٨٩٨ تزوجت « ساروجيني » من دكتور « نايدو » من نابهي أهل « حيدر اباد » فاستولدها أربعة أولاد قالت فيهم قصيدتها المشهورة « الى أولادي » : To my Children ، فوصفت ابنها الاول « جايا سوريا » بأنه سوف يكون « شمس الأغنيات والحرية » . وقالت في ابنتها « بادامبا » — « أنها عذراء تفيض بالطعوم الحلوة ، بريئة كزهرة النيلوفر » . ووصفت ابنها « راناده يرا » — بأنه « ربُّ المعارك » ، وتمنت لو أنه يجاهد جهاد بطل مغوار في معركة الحياة . أما ابنتها « ليلاماني » فهي عندها — « دُرَّة المرَح » وتمنت لو انها تظل ما عاشت « محرَّرة من الحزن فائقة بالغبطة » .

***

أما بيتها في حيدر اباد فسمته « العتبة الذهبية » بعنوان قصيدتها التي أشرنا اليها آنفاً

وهيئة عالمية تقدمية ، وحيث حياة منتجة خصبة ، ومن جنباته قادت الحياة الاجتماعية والثقافية في تلك المدينة الصاخبة .

***

وفي سنة ١٩٢٠ اقتحمت « ساروجيني » ميدان السياسة القومية ، ورأست « مؤتمر الهند القومي » ، وأصبحت الساعد الأيمن لمهاتما « غاندي » ، وكانت في طليعة الحركة النسائية فرأست « مؤتمر النساء الهندي » .

وفي سنة ١٩٣١ هبطت انجلترا مع مهاتما « غاندي » عضواً في مؤتمر « المائدة المستديرة » . ذلك بأن فيها من صفات المجد والعقل ونزاهة النفس ما أهلها لأن تكون من الزعيمات المبرزات في ميادين الحياة العليا .

وبالرغم من أنها كرست حياتها لمشكلات بلادها القومية ، وصرفت في سبيلها كل ما وهبتها الطبيعة من قوة ، ظلت إلى جانب هذا كبيرة الاهتمام بالمثاليات الأممية ، مثاليات الدولية العالمية ، القائمة على تعاطف الشعوب وتبادل المنافع واحترام الحقوق العامة للبشر أجمعين .

***

وهي فوق ذلك تتصف بالمرح وسعة الأفق ، فتقول : « إن أعظم ما وهبتني الحياة من الهبات ، أو بالحري ما وهبني مزاجي منها ، هو الضحك ، وليس عندي في الدنيا ما يساويه قيمة » . كذلك هي بروحها ومزاجها هذا من المتحمسات اللواتي يشعلن في جوهن الاقدام ويبعثن قوة الخيال والوحي فتتقد وتزكو ، فلا تخبو .

***

إن « ساروجيني نايدو » هي « سحبان »(١) الهند ، وكروانها الفرد . هي خطيبة في مستطاعها أن تحمل سامعيها على جناحيها وتطير بهم في آفاق مديدة قصية ، إذ تأخذهم ببلاغتها ، وتختلبهم بفصاحتها واتساق معانيها وأناقة عباراتها وخيالها الشعري ومنطقها الهادىء الرصين .

---

(١) خطيب جاهلي يقال انه أخطب العرب

ان روح هذه الشاعرة الشرقية العظيمة قد انصبَّ جميعاً في شعرها ، وحياتها الغالية الثمينة تمثلت جميعاً فيه . وننقل هنا مثلاً من شعرها تهب فيه نوافح القوَّة والبكاء على وطنها ، فترثيه ، ولكنها في الوقت نفسه تستعديه على الزمن وعلى الأقدار .

To India

" O young through all thy immemorial years !
" Rise, Mother, rise, regenerate from thy gloom,
" And, like a bride high-mated with the spheres,
" Beget new glories from thine ageless womb !

* * *

" The nationas that in fettered darkness weep
" Crave thee to lead them where great mornings brake...
" Mother, O mother, wherefore dost thou sleep ?
" Arise and answer for thy children's sake !

* * *

" Thy Future calls thee with a manifold sound
" To crescent honours, splendours, victories vast ;
" Waken, O slumbering Mother, and be crowned,
" Who once wert empress of the sovereign Past.

* * *

هذه الروح لا يدركها الا شاعر ، وحرام أن ينقلها الى العربية غير شاعر ، نثراً أو شعراً .

خرافة تاريخية

سيدة ثورميدور ومصرع روبسبيير

أذكر أن مجلة الهلال كانت قد نشرت منذ سنوات مقالاً عن انقلاب ثورميدور في أيام الجمهورية الفرنسية الأولى. ذلك الانقلاب الذي أدى الى مقتل روبسبيير وازالة حكم الارهاب. وقد ذكر الأديب الفاضل صاحب المقال أن تاليين النائب الارهابي النزعة، عشق تريزا كاباروس التي كانت تسمى مدام فونتني قبل أن تطلق من زوجها الأول، وأن هذا العشق صقل نفس تاليين وألهمه الرحمة والعدل والاعتدال وكان مندوباً للحكومة الثورية ومجلس النواب للبطش بالرجعيين في بوردو وحوض الجارون. فلما رأى روبسبيير أثر ذلك العشق، سجن تريزا كاباروس، فأرسلت الى صاحبها تاليين الرسائل من سجنها تحثه على اسقاط روبسبيير، كما أرسلت اليه خنجراً كي يقتله فيخلصها ويخلص الشعب منه، فأدركت تاليين الحماسة والشهامة، فقام في مجلس النواب وحثهم على اسقاط روبسبيير وازالة حكم الارهاب فانقاد له النواب وأسقطوا روبسبيير. وهذه القصة تخالطها أغاليط تجعلها أشبه الاشياء بالخرافة. وهي مؤسسة على اشاعة شاعت بين الجمهور الجاهل عقب مصرع روبسبيير، ثم زينها لامارتين الشاعر المؤرخ بخياله، وان كان خياله في بعض الأحايين موضحاً للحقائق كالمنظار المكبر، ولكنه كان في بعضها خيالاً يطغى على الحقائق. ثم عمقها المؤرخ أرسين هوسي بأسلوبه الخطابي وهو يعترف أنه أخذ القصة عن إحدى بنات تريزا كاباروس.

أما أن تاليين عشق تريزا فصحيح، وصحيح أن روبسبيير قضى بسجنها، وصحيح أن تاليين كان من المؤتمرين به وانه رفع خنجراً في مجلس النواب، ولكن كل ما عدا ذلك باطل للأسباب الآتية:

أولاً — إن روبسبيير كان يدافع عن الأرهاب من غير شك، ولكنه كان يكره ما كان يفعله كثير من زعمائه من اتخاذه وسيلة لنيل مآربهم واختلاس الأموال وقبول الرشاوي

والمتاجرة بأوامر العفو عن المتهمين واتخاذ الرشوة سلاحاً معلقاً فوق رؤوسهم ، من دفعها نجا، ومن لم يدفع أعدم. وقد اتهم تالبين بهذه التهم ومن أجل هذه التهم استدعى الى باريس.

وقد اتهمت تريزا كاباروس عشيقته بأنها كانت من وسائط تلك المتاجرة بأوامر العفو وقبول الرشاوي وانتهاب الاموال ومن أجل ذلك لم تذكر اسم تالبين عند استجوابها بعد القاء القبض عليها كأنها ما كانت تعرفه .

هذا التجاهل كان خطتها وخطته في ذلك الوقت قبل سقوط روبسبيير وهي خطة معقولة سليمة مسلمة لتجنب خطر تلك التهم . ولكنها تخالف القصة الخرافية التاريخية المعروفة .

ثانياً — إن الأوراق التي خلفها روبسبيير وشكاوى تالبين من مراقبته تثبت أن رقابة شديدة كانت مفروضة عليهما فما كانا يستطيعان تبادل الرسائل وعشيقته مسجونة .

ثالثاً — كان السجانون يفتشون المسجونات عن مخبآت ، وقد كانوا في بعض الأحايين يبالغون في ذلك فيفتشون عوراتهن فما كان من المستطاع أن تخبىء تريزا خنجراً . وكانت المسجونة تنزع عنها ثيابها كلها عند دخولها السجن وتفتش ثيابها وأعضاء جسمها أمام عدد كثير من الشرطة .

رابعاً — لو فرضنا جدلاً انها كانت تستطيع أن تخبىء خنجراً فما كانت تستطيع أن تبعث به الى تالبين مع الرقابة الخاصة المفروضة عليها وهي لو استطاعت، فانها ما كان يبلغ بها الحمق هذه الدرجة إذ أي رسول كان يؤتمن على تحريض على القتل يؤدي الى اعدامها بلا تردد . وهي تريد النجاة لا الهلاك .

خامساً — كان هم تالبين قبل الائتمار بروبسبيير أن يزيل من ذهنه أثر صلته بتريزا التي كانت من أسباب استدعائه واتهامه في نزاهته فكانت خطته أن يقطع صلته بها ويسترضيه .

سادساً — بالرغم من دفاع روبسبيير عن الارهاب فانه كان يهاجم أي مندوب في المقاطعات بلغه مبالغته في القتل بغير حق كما هاجم فوشيه ، وقال له ان الجريمة مكتوبة على وجهه . ويكفي أن نقارن بين حكم كوثون صديقه في مدينة ليون وبين حكم فوشيه وكولودربوا، لنعرف أن أعداءه زعماء الارهاب الذين دبروا الائتمار به لم يفكروا في تعطيل الارهاب عند ائتمارهم به . ويحسن أن نذكر أن المعتدلين من النواب وكانوا أكثر الأعضاء تردداً

قبل أن ينضموا الى ذلك الائتمار خشية انتقال النفوذ الى من هم أشنع منه . إلاَّ أن نفوذ روبسبيير في جمعية اليعقوبيين وسيطرته على المجلس البلدي في باريس جعلته خطراً أعظم . وكانت تلاحقه عداوة اتباع من حثَّ على قتلهم كما انه أخطأ في مخاصمة أكثر زملائه من أعضاء مجلس السلامة وبتهديد النواب تهديداً حسبه كل نائب موجهاً اليه . وعند ما رفع تالبين خنجره كان يعرف أن الارهابيين والمعتدلين مجمعون على اعدامه ولولا ذلك ما اجترأ على رفع الخنجر .

سابعاً — ان انتصار الجيوش الفرنسية ودفع خطر الغزاة عن فرنسا كانا أهم سبب من أسباب سقوط روبسبيير ، إذ لم يعد هناك داعٍ يسوّغ بقاء الارهاب الذي كان بمنزلة أحكام عرفية شديدة الوطأة قبلها الفرنسيون وخضعوا لها في أوقات الخطر الداهم من الخارج . ولكن إذا كان لانسان فضل في تدبير الائتمار فالفضل في ذلك لفوشيه الداهية الذي كان يعمل في الخفاء كي يؤلف بين الأحزاب ونسب الفضل الى تالبين لأن الجمهور لم يكن يعرف أسرار ذلك الائتمار وراعته اشارة تالبين بالخنجر .

ثامناً — كان روبسبيير قد أغرى النواب بوضع حدٍّ أعلا للأجور لا يتعداه عامل أجير . وكانت الأجور قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً خشي منه أن يعطل الأعمال وكان ارتفاع الأجور بسبب تجنيد كثير من العمال وارسالهم الى الحدود للدفاع عنها . وكلما قلّ عدد العمال ارتفعت الأجور . ولكن الأوراق المالية كانت قد انخفضت قيمتها وارتفعت أثمان الحاجات . ولعلَّ وضع حد لارتفاع الأجور كان من أهم أسباب انصراف رجال الثورة في باريس — وكان أكثرهم من العمال — عن روبسبيير عندما اعتصم بالمجلس البلدي ، فتمكنت جنود الحكومة من القبض عليه مرَّة ثانية ثم أعدم وانتقل النفوذ الى المعتدلين في جمعية النواب .

تاسعاً — ان تاريخ تالبين وتريزا كاباروس بعد مقتل روبسبيير يكذب أيضاً تلك الاسطورة . انه تزوجها كي يستثمرا سياسيًّا وأدبيًّا أسطورة الحب المطهر القاهر الذي غلب روبسبيير . ولكن تالبين كان مضطرباً في سياسته يخون الحكومة سرًّا . وبالرغم من وعده بالدفاع عن أسرى حملة كيبيرون من النبلاء يسلمهم للقتل وما زال يتخبط حتى فقد

نفوذه . أما تريزا فقـد انتقلت الى عشاق مثل باردًا واوفرار وطلقت منه ، بعد أن أسرفا وبذرا الأموال التي جمعاها .

والخلاصة اذاً هي أن عشق تالبين تريزا كاباروس لم يكن له أثر في سقوط روبسبيير وانتهاء حكم الارهاب، وان تالبين كان أداة في يد غيره من أمثال فوشيه، وان الحب لم يطهر قلبه ، وان قصة إرسالها الرسائل والخنجر من السجن كي تحث تالبين على اسقاط روبسبيير وقتله قصة خرافية، وأن تالبين كان يدافع عن حياته عندما اشترك في الائتمار به بعد أن حاول استرضاءه وخاب ، وبعد أن تذلل له فلم يكن اشتراكه في الائتمار بسبب حبه تريزا، وان الارهابيين الذين رأسوا ذلك الائتمار ما كانوا يفكرون في ازالة حكم الارهاب بل كانوا يريدون بقاءه ما دامت الحرب قائمة لأنه كان بمنزلة أحكام عرفية . وانما زال بالرغم منهم عند ما ابتعدت أخطار الحرب وأبى الشعب أن يظل قائماً .

ع . ش

أتقضى معي إن حَانَ حَيْني تجاربي
وما نِلْتها إلاَّ بطول عناء
وأبذل جهدي في اكتساب معارف
ويَفنى الذي حصَّلته بفنائي
ويَحزُنني ألاَّ أرى ليَ حيلة
لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورَّثَ الجهَّال أبناءهم غنىً
وجاهاً ، فما أشقى بني الحكماء

« من شعر المرحوم حفني بك ناصف »

أدب البحر

عند العرب والفرنجة

لم يأنس العربي بشيء في يوم من أيام حياته إيناسه بناقته ، فهي عروس الصحراء يتغنى بها ويحدو ، ويريق عليها روائع الوصف وبدائع الوشي ، وهي الى هذا كله ملاذه الأمين ، إذا عطش شرب من ضرعها ، أو جاع نحرها ، أو ارتحل امتطاها ، مثل هذه الناقة عزيزة على العربي ، كان يضرب بها في مشارق الأرض ومغاربها وفي بعض الأحايين يقف أمام شيء أزرق لا حدود له ولا نهاية ، فتهزه روعة هذا الشيء العظيم ، ولما كانت طبيعة الصحراء هي الحاكم المطلق في نفس العربي ، لذلك رأيناه يبتعد جهده عن البحر ، هـذا البحر الذي قال عنه لوتي : (الحلقة الزرقاء والوحدة القاتمة العميقة ، لا شيء يمر ولا شيء يتغير) . يرتد العربي عن البحر ، وفي قلبـه تطلع الى ارتياد آفاقه ، ولـكنه يعلم حق العلم وحدته في دنيا البحر ، فـكل شعوب الأرض لها آلهة ، وهذه الآلهة تتولى كل حرفة برعايتها ، وكل صنعة بعنايتهـا ، فالاغريقي مثلاً يؤمن بـ (بوسيود) إله اليمّ ، ويعتقد فيه اعتقاداً عميقاً قوياً حتى انه كان لا يتورَّع عن تقديم ضحايا بشرية له ، مقابل بسط سـلطان رحمته عليه . أما العربي فلم تكن له آلهة بحر تحميه من شرّ اليمّ ، لا بل انه قلما ارتاد البحار وجاب آفاقها وهو إذا طرق باب الهند فقد كان يلزم سيف الشاطىء في معظم الأحايين ، وهكذا لم نجد في الأدب العربي القديم شيئاً يطلق عليه اسم أدب البحر ، ذلك الأدب الذي يصوّر لنا حياة الخضمّ و (افروديت) منبثقة من زبده الأبيض الناصع ، وأسطول (آغامنون) ومغامرات القرصان وانطلاق الروّاد في مجاهل البحـار لاكتشاف الرقاع الجديدة ، كان كل هذا مصـدر أدب وجداني طريف ، طالعنـاه في شعر (أندره كانتل) ، وآثار (كاميل فالو) الذي يعتبر من

أكبر كتاب البحر ، و (رامبو) في (سفينة السكري) والكاتب القصصي (ستيفان زديك) في حكاية (ماجلان) وأخيراً (بودلير) يطلع علينا بأروع شعر عن البحر ، يطلع علينا بقوله : (ما من أحد يعرف ثروتك ، كم أنت غيور على كتمان أسرارك) ويتابع بودلير قصيدة (الرجل والبحر) على هذا النحو من التنظيم الذي خص به وانفرد به دون غيره من الشعراء ، ومن ثمّ (بيرلوتي) وكلود فارير يصفان البحر وصفاً منثوراً لا يجاريه وصف.

ولكن شعراء وكتّاب الانجليز فاقوا غيرهم في هذا الباب ، فقد كان البحر مادة حياتهم الأولية ، منه انطلقوا ومنه ذهبوا في الآفاق ، ومنه شادوا امبراطوريتهم من سفينة الصيد البدائية حتى أحدث سفينة عصرية ، تحمل فوقها شعراء مغامرين كما حدّثنا (مايكل لويس) في كتابه (البحرية البريطانية ورجالها) — هؤلاء الشعراء وصفوا شيئاً أعظم من البحر أيضاً ، وصفوا معارك البحر ، كما فعل الشاعر (كامبل) حيث نمّق معركة (الارمادا) ثم الطرف الأغر أحسن تنميق .

***

نشأ العرب نشأة بدوية ، لذلك عزّ عليهم مفارقة المفاوز الى غيرها من سبل هذه الحياة الدنيا ، فكانت معظم رحلاتهم التجارية برية ، رحلتي الشتاء والصيف ، ولم يغامروا فوق سطح البحر وراء ما قال عنه الشاعر بول كاك .

[سل أيّ بحّار كان ، لماذا تطوّف فوق البحر ، أجابك كيما أشاهد بلداناً جديدة] لأن المدينة ذاتها لا تستهويهم .

***

وهكذا ظلّ الأدب العربي مفتقراً الى هذا الضرب من الأدب حتى مكن الله لهم في الأرض واضطروا تحت تأثير عوامل دفاعية في أول الأمر الى بناء أسطولهم البحري ولم يتم ذلك إلاّ في عهد معاوية ، ذلك لأن معاوية طلب من الخليفة عمر بن الخطاب السماح له بانشاء أسطول بحري يرد به عدوان أسطول الروم عن السواحل الشامية ، إذ كان الروم يغزون البلدة الساحلية بحراً ثم يوغلون في البحر بعد إسرافهم في أهلها قتلاً وإيغالهم في رزقها

نهباً ، ويقف جيش معاوية أمام هذا العدو الذي لا سبيل إلى مقارعته إلاّ بنفس سلاحه ، فيقرّر معاوية انشاء أسطول بحري .

***

بدأ طلب انشاء الاسطول العربي البحري في عهد معاوية إبان كان والياً ، فدرس الخليفة عمر الطلب ، فارتأى معرفة رأي عمرو بن العاص والي مصر في ذلك الحين ، فلما عرف عمرو ابن العاص أن معاوية سيضيف قوة بحرية إلى قوته البرية ، خوّف الخليفة عمر بن الخطاب من البحر ، برسالة تعدّ من أروع رسائل أدب البحر عند العرب ، فما كان من الخليفة إلاّ أن قال (لا تجعلوا بيني وبين المسلمين بحراً) .

ولكن تطوّر العرب التاريخي الناهض ، كان يسير بسرعة فائقة ، بحيث لم يكن في مقدور أية قوة في العالم وقف زحفه ، فقد دخلت الامبراطورية العربية في عهد جديد ، بعد تقلد معاوية الخلافة ، إذ دخلت في عهد الامتداد ، ومثل هذا يتطلب لا حماية السواحل العربية فحسب ، بل انشاء السفن التي تحمي هذه السواحل وتغير على بلاد الأعداء أيضاً .

وكان أول أسطول عربي أسطول (الأمير عبد الله الفزاري) وكان شعاره (الغمرات ينجلينا) ، ولما كان معاوية يدرك موقف العرب من البحر وكرههم له ، لم يشأ حملهم بالقسر على الجهاد في غمراته بل جعله موقوفاً على المتطوعين الذين ينهدون اليه من تلقاء أنفسهم . وقد كان معاوية من الذكاء بحيث أنه ضاعف أعطيات هذا النفر من الناس الأشاوس ، ولما كانت البلاد الشامية على اتصال وثيق بالبحر منذ العهد الفنيقي ، لذلك نهدت الشام إلى إعداد الأسطول ، معدة إياه من أرز لبنان العظيم .

لم يكد الأسطول العربي يجهز ، حتى علم معاوية بغارة بحرية على سواحله ، فأرسل أسطوله في إثره ، وهو أسطول صغير يعوزه التدريب البحري ، ومع هذا فقد هزم أسطول الروم ، وبذلك كشف العرب عوار الروم البحري ، وأدركوا أنهم ليسوا في البحر أمنع منهم في البر ، وهكذا راحوا يغيرون على سواحل الأعداء تحت قيادة (الفزاري) غير حافلين بأعباء البحر ، ولكن (الفزاري) مات ميتة ماجدة وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، فقد تنكّر ونزل الى مدينة رومية تقوم على رابية حتى يتسنى له ، وهو أمير البحر

معرفة مواضع الضعف في المدينة ومهاجمتها ، غير أن سوء حظه دفعه الى افتضاح أمره ، فقد عرفته امرأة رومية بالرغم من تنكره الشديد ، إذ سبق له أن أغار على بلدتها ، فأغرت به الأهلين وتصايحوا من كل حدب وصوب ، ثم تألبوا على الأمير العربي الشاب ، الذي ظلَّ يحارب حتى مزقته السيوف والرماح ، بعد أن قتل من الأعداء مقتلة عظيمة .

من هنا يتضح لنا أنه بظهور الأسطول العربي ظهر الى جانبـه تاريخه ، فالهجوم على القسطنطينية برًّا وبحراً هو جماع تحف وصفية عن معارك البحر نطالعها منثورة في كتب (الطبري والمسعودي وابن قتيبـة) وخاصـة فيما يطلق عليه اسم (المغازي والفتوح) ، ولـكن ما كتب هؤلاء لا يعدو التاريخ ، إذ ظلَّ ينقصه ذلك الشيء الوجداني الذي يتطلبه الأدب . كان البحر عند العرب في أول الأمر ، مركب دفاع عن السواحل ثم تطوَّر الى مركب هجوم ، ولما أثرى العرب بدأ الفن يعمل عمله في حياة العرب البحرية ، ذلك لأن الإنسان لا يقنع بالطبيعة، بل يعمد الى الفن ليضاعف به الحياة، ومن هنا نشأت الزخرفة في الأسطول العربي وأدب البحر عند العرب وعند الفرنجة .

***

قضي على الدولة الأموية في الشرق فقامت دولة أموية أخرى في الغرب ، وكانت هذه الدولة أكثر عناية بالأسطول من كل دولة عربية أخرى فقد كان عليها أن تصد عادية الفرنجة كما كان عليها أن تصد عادية (العبيديين) فـكانت المعارك بين الطرفين مطردة مستمرة ، وبالرغم من هذا التناحر القائم بين أبناء القوم الواحد فقد تمكن العرب من بسط سلطانهم على البحر المتوسط والاستيلاء على قسم كبير من سواحله وجزره (الاستراتيجيكية) بحيث نستطيع القول أن العرب في القرون الوسطى كانوا على حق إذا قالوا عن البحر المتوسط : هو بحرنا .

ولما كان الظفر يقابل عادة بالبهجة فقد تأثر الشعراء العرب به وصاغوه شعراً ثم اندفعوا الى أبعد من هذا الحد فوصفوا البحر وصفاً فنيًّا ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء : (ابن هاني الأندلسي وعلي بن محمد الايادي التونسي وابن قلاقس الاسكندري وابن حمديس ...)

كان الواحد من هؤلاء الشعراء إذا طرق باب أدب البحر وحاول وصف السفن قال عنها :

(رب جوار منشئات طوائر بين السماء والماء ،

إذا نشرت أجنحتها روض ونور ،

فهي ذات هدب من المجاذيف خال ،

وهي في نفس الوقت هدب باك لدمعه اسعاد

غير أن هذه السفن الجارية على البحار

تحمل فوقها حمم شواظها من لهب ،

فكل من توسل إليه يغدو رماداً

الكماة على ظهورها وبطونها دائماً وأبداً حذرين

وإذا انطلقت كان انطلاق السحاب المندق ،

والعجب العجاب في أمرها أن يحمل الأسد الضواري زورق .

والذي أروع من هذا أنها ذات زئير وهي صوامت ،

وتزحف زحف موكب في زورق ، فهي ترمي ببروج إذا ظهرت للعدو ، وبنفط يخاله الانسان ماء يذكي السكان.

وهي شواني طائرة ومدن بنيت على الماء ،

ذات بروج شاهقة تقذف بالحمم) .

***

هذه نتف منثورة من أدب البحر عند العرب ، لم يقتصر أمرها على أدب الأندلسيين والفاطميين وغيرهم من سكان شمالي أفريقيا ، بل شمل وحي البحر العباسيين أيضاً ، فقد كانت سفن الأسطول العباسي مثل سائر سفن الأساطيل في القرون الخالية ، أي أنها كانت تجارية وحربية في وقت واحد ، إذ لم يتم التفريق بينهما إلاّ في عهد (هنري الثاني) لذلك كان على الذي يرتاد البحار أن يكون مغامراً ، ومن هنا نشأت تلك الأقاصيص العظيمة الرائعة عن (السندباد) وغير السندباد . وكانت قصة (الف ليلة وليلة) تؤلف جزءاً غير يسير من أدب البحر .

ولكن الغرب إذا أبدع محمد بن هاني الأندلسي فقد أبدع الشرق النواسي هذا الشاعر الذي وصف سفينة الأمين ، وهي تشق عباب دجلة ، وقد نحتت على شكل أسد ، والأهلون مصطفون على الضفتين يشاهدون هذا الموكب الرائع حيث الفتيان تغني فوق السفينة .

***

ويقول صاحب الأغاني إن الخلفاء العباسيين ألفوا البحر وأحبوه ، فكانوا يركبون دجلة ويقضون فوق مائه سمرهم وأنسهم ، حتى أن الأمين كان لا يسمع غناء الملاّحين إلاّ في الزلالات الفخمة الأنيقة .

* * *

حيال كل ما تقدم لا يسعنا إلا التساؤل :

أيقوم أدب أمة بدون أدب بحر ؟

لا ريب أن الجواب على هذا السؤال يرجع الى عاملين خطرين :

الاول : مركز البلاد الجغرافي وقربه وبعده من البحر .

الثاني : حضارة الامة وامتداد سلطانها .

فالمركز الجغرافي البحري يساعد مساعدة تامة على بعث ادب البحر ، وقد ينطبع عصر بكامله بطابع هذا الأدب كما كان الحال في انكلترا إبان القرن الثامن عشر ، والحضارة وامتدادها من شأنهما خلق شرائط اجتماعية أقل ما يقال فيها إنها توحي بأشياء غنية موفورة ، فالشاعر المعاصر (مايستفيلد) لا يصوّر أدب البحر تصوير القدماء ، بل يصوّره تصويراً نفسيًّا يخاطبه ويتحدَّث اليه ، ويناجيه ويبثه شكواه . وهكذا تمتد ذات الشاعر الوجدانية كلما تقدمت الحضارة ، لأن الحضارة في جوهرها امتداد لفردية الانسان ، والشاعر وحده أكثر الناس تصويراً لهذا الامتداد .

سوريا — دمشق : نسيب اراخنيار

المتنبي

شغل الناس في كل عصر

في (نفح الطيب) :

« تباحث المعتمد بن عباد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره :

أزورهم وسواد الليل يَشْفَع لي وأَنْثَني وبياض الصبح يُغْري بي

فقال : ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها الاَّ أنَّ فيه نقداً خفيًّا ففكروا فيه ، فلما فكروا قالوا له : ما وقفنا على شيء . فقال : الليل لا يُطابَق الاَّ بالنهار ، ولا يطابق بالصبح ، لان الليل كُلّيٌّ والصبح جزئي . فتعجب الحاضرون ، وأثنوا على تدقيق انتقاده .

قال الصفدي : ليس هذا بنقد صحيح ، والصواب مع أبي الطيب لانه قال (أزورهم وسواد الليل يشفع لي) فهذا محب يزور أحبابه في سواد الليل خوفاً ممن يشي به ، فاذا لاح الصبح أغرىٰ به الوشاة ، ودلَّ عليه أهل النميمة ، والصبح أول ما يغرى به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً ، وينصرف عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء ، ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث الى أن يتوضح النهار ، ويمتلىء الافق نوراً . فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار .

قلت : كان يختلج في صدري ضعف ما قال الصفدي حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكي ومن خطه نقلت ما صورته : هو ما انتقد عليه

المعنى انما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح ، فان ذلك فاسد . فحمدت الله على هذه الموافقة .

قلت : يقول ابن رشيق في (العمدة في صناعة الشعر ونقده) :

« ... ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس ... » .

والمتنبي يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

(شواردها) قصائده السائرة في البلاد (جراها) من أجلها .

في (الايجاز والاعجاز) للثعالبي :

« كان أبو بكر الخوارزمي يقول : أمير الشعـراء العصريين أبو الطيب ، وأمير شعره قصيدته التي أولها (مَن الجآذر في زي الاعاريب) وأمير هذه القصيدة قوله (أزورهم) البيت » .

قلت : قد يرى غير الخوارزمي أن أمير شعره قصيدته (على قدر أهل العزم) وأمير الأمراء ... بيته (ومن نكد الدنيا)

في (الصبح المنبي) :

« قال أبو على الفارسي : قيل للمتنبي : على من تنبأت ؟

قال على الشعراء

فقيل لكل نبي معجزة ، فما معجزتك ؟

قال هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ، ما من صداقته بدُّ

السهمي

الرأي العام الاجتماعي

ليس فيما نشره الأستاذ سلامة موسى في المقتطف عن الرأي الاجتماعي ولا فيما ردّ به عليه الأستاذ محمد الديب، تحديدٌ للرأي العام أو للرأي الاجتماعي أو تعريف لهما. ولكي يعلم القارىء ماذا يريد كلٌّ منهما بالرأيين أو بأحدهما إذا كانا يعنيان معنىً واحداً ، أرجو أن لا أكون متطفلاً أو فضولياً اذا استأذنتهما أن أقول كلمة في هذا الموضوع ، فان لم ترق لهما أو للقراء فليعرضوا عنهما كما يعرضون عن كثير من كتابات الكتّاب التي لا تصادف استحساناً عامّاً .

الرأي العام أو الرأي الاجتماعي قول مبهم بعض الابهام كما سيظهر في سياق هذا البحث.

لا يخفى أن أكثر العموميات كالشعور المشترك والرغبات العامة والاحساس الأدبي والرأي المنتشر وإرادة الأمة أو الجمهور ونحو ذلك ، إنما هي عناصر « العقل الاجتماعي » أو « التفكير الاجتماعي » . وهو معلوم أن نتيجة الاجتماع الأولى هي نشوء العقل الفردي ثم تطوره . والنتيجة الثانية نشوء العقل الاجتماعي أو العقل العام .

العقل العام هو أن يشترك الجماعة في تفكير واحد ويتلقوا أو يعلموا معرفة واحدة ، ويتفقوا من غير تواطؤ اتفاقاً واحداً في الآداب والعقائد والعادات ، ويمضوا جميعاً تحت تأثير قوانين واحدة . وبموجب هذا التوحيد يسلكون سلوكاً واحداً في عمومياتهم من غير تعمّل أو تصنّع .

ولا يجوز الخلط بين « العقل الاجتماعي » و « الوعي الاجتماعي » الدارج على أقلام الكتّاب في هذه الأيام . فهم يعنون « بالوعي » الوجدان . وما هما بمعنى واحد . فما الوعي إلاّ حفظ الشيء مادياً كان أو عقلياً . والوجدان أشمل وأعمق وأعمّ من العقل ، فهو إدراك الانسان نفسه وإدراك انه يدرك وإدراك ان مدركاته الباطنة والظاهرة صادرة منه . فلا يصلح لفظ الوجدان « للوجدان الاجتماعي » . ولا نرى أن للاجتماع وجداناً إلاّ في الجماعات

العريقة في التفكير كالجمعيات السياسية والعلمية ، ونحوها ومع ذلك يكون وجدانها ضئيلاً .

دعنا ضمن دائرة « العقل الاجتماعي » : الرأي العام الاجتماعي بواسع معناه واطلاقه هو من مواليد العقل الاجتماعي . فاذا شرّحناه تشريحاً عقلياً اجتماعياً لا نجد رأياً اجتماعياً عاماً بتاتاً . بل نجد رأياً اجتماعياً خاصاً لا عاماً .

كل ما اصطلح عليه القوم أو معظمهم من عادات وعقائد وآداب ومعاملات نسميه رأياً اجتماعياً عاماً على ان كثيراً من هذه المصطلحات متقادمة العهد كالعقائد الدينية أو القوانين المدنية أو الآداب العمومية فنسميها تقاليد Traditions ونحسبها آراء عمومية ولا داعي لنعتها « بالاجتماعية » مع نعتها بالعمومية لأنه لا يكون الرأي عمومياً إلاّ وهو اجتماعي . وكلما كانت متقادمة الزمن كانت تقاليد مستحجرة أي انه يتعذر نقضها أو تنقيحها بل يكاد يستحيل . وإذا نشأت الى جانبها عقيدة جديدة أو عادة حديثة واردة من خارج البلاد حدث بينهما صدام ونزاع قد يؤدي الى حرب . والغالب ان القديم المستحجر ينتصر في النزاع . كم مرّ من ألوف السنين على أديان المصريين القدماء . فما تقلقلت إلاّ بعد أن طغى على البلاد الغزاة الأجانب من الغرب من اغريق ورومان .

وكم مرّ على اليهودية من مئات السنين وكم هاجمتها العقائد الجديدة النصرانية والاسلام فضؤلت ولكنها لم تزل باقية متمسكة بقديمها .

واكتشف منذ مئات من السنين أن الحساب الشمسي مغلوط وبقي معمولاً به لأنه تقليد قديم الى أن تجرّأ أحد أحبار النصارى وصححه وأجرى التصحيح بسلطة تقليد أقوى منه وهي السلطة الدينية. فجرت عليه الكنائس الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية وبقيت الكنائس الشرقية الارثوذكسية مصرّة على الحساب القديم المغلوط مئات من السنين وما قبله بعضها إلاّ حديثاً .

كانت العمامة غطاء الرأس عند الأتراك وقد أخذوها من العرب. فلما اتصلوا بالاغريق أخذ السلاطين الطربوش عنهم فأخذه معظم الشعب العثماني من قبيل تشبه الشعب بحكامه . ولكن جانباً كبيراً منهم لا يزالون يعتمّون الى اليوم . وبقي الطربوش شعار العثمانية حتى الآن على الرغم من أن الاغريق نبذوه . وبقي هذا الميراث الاغريقي عندنا في مصر والشام على

الرغم من أن الأتراك نبذوه مكرهين بحكم الحاكم بأمره مصطفى كمال الذي اتخذ اتاتورك اسماً له نابذاً الاسم العربي كرهاً في كل ما هو عربي.

وعلى الرغم من أن مصطفى كمال أمر بقوة استبداده أن تكتب التركية بالحرف اللاتيني لا يزال الأتراك يئنون استهجاناً لهذا الحرف الذي لا يلائم لغتهم لأنها تحتوي على ٦٥ في المئة من الكلمات العربية وأكثر اشتقاقاتها عربية أيضاً فيفضل أن يكون حرفها عربياً.

ونحن كلما هممنا أن ننبذ الطربوش لأنه أقل صلاحية من القبعة في هجير الصيف نكصنا الى الوراء لأن التقليد القديم مستحجر لا يلين لمكسّر.

وهناك ألف شاهد وشاهد على أن التقاليد كلما تقاربت تحجرت وصعب جداً تنقيحها بما هو أفضل منها أو تعديلها بمقتضى تطور البيئة الاجتماعية.

انظر الى لغتنا العربية كم عبر عليها من الأجيال والقرون فتطوّرت ببطء كلي على مدى هذه الأحقاب، حتى انها لم تبتعد كثيراً عن شقيقتيها السريانية والعبرية، مع انك لا تكاد تفهم الآن كثيراً من أشعار الجاهلية والموغلين في قدمها. ومع ذلك لا تقدر الآن أن تنقح شيئاً من صرفها أو نحوها مما يخالف المعقول والاقتصاد في التعبير والقراءة والكتابة والزمان. فما زلت لا تجسر أن تنصب جمع المؤنث السالم بالفتحة قياساً على قاعدة النصب العامة بل يجب أن تنصبه بالكسرة وإلاّ كفرت باللغة. ولا تجرؤ أن تجر الاسم الممنوع من الصرف بالكسرة حسب قاعدة الجر العمومية، بل يجب أن تجره بالفتحة كابرهيم مثلاً. لماذا هذا وذاك! لا تدري. وإن أعطيت سبباً كان تمحّلاً لا يسوّغ هذا الاستهجان. وقس على ذلك كثيراً من قواعد اللغة التي لا تنطبق على منطق سليم ولا هي من المحاسن والمحامد بل بالعكس هي من المستنفرات كالمستشزرات. فمنها نون التوكيد المشدّدة والمخفّفة التي تضعضع عقل الطالب لتنوّع قواعدها ولا لزوم لها مع وجود أساليب أخرى للتوكيد المنوع للذهن مثل إن واللام والقسم.

ومن هذا القبيل قواعد النسبة التي لا ترتكز على أساس. وقاعدة فعول وفعيل وقاعدة تخالف العدد والمعدود الى غير ذلك مما لا يحصى من عيوب قواعد اللغة التي لا يمكن أن تحفظ وتستذكر، وليس فيها تسهيل للكلام وفهم الكلام. كل هذه تقاليد مستحجرة.

هذا هو الرأي العام اليابس الصلب الأصم الذي لا تستطيع أن تعارضه أو تقاومه . فاتركه للزمن يعمل فيه عمله .

هذه التقاليد المستحجرة التي لا تعد ولا تحصى هي آراء عامة تسلسلت الينا من الأزمنة المتقادمة ولا ريب انها تطورت ببطء كلي بمقتضى سنة التطور . عانت كثيراً في تطورها أو ان ذويها عانوا جداً في تطويعها بمقتضى تطورات الزمن . وكان كلما أصبح تقليد غير صالح للزمن قام أناس يرتئون تنقيحه فلقوا من أهله عنتاً واضطهاداً يصدهم عنه. ولذلك كانوا يستفزون أنصاراً لهم بالاقناع والدعاية ومع ذلك قد ضحوا في سبيل دعوتهم . فيسوع صُلب ، ومحمد اضطهده قومه ، وسقراط سممه قومه، وغاليليو عاقبوه ، ولولا إذعانه مكرهاً لقتلوه . كل يوم يجد القوم عقيدة قديمة لم تعد صالحة لزمنهم فيهبون لتعديلها أو تنقيحها أو نبذها وابدال غيرها بها . فيكون تجديدهم رأياً جديداً . لا يصح أن نسميه رأياً عاماً لأن هناك أنصاراً للقديم يقومون ضدهم . هذا هو منشأ الأحزاب . ومتى قُلت «أحزاب» «فلا تقل» رأي عام . لأن التحزب يعني انقسام الآراء وتضادها وتعددها .

الرأي الذي يصح أن يسمى رأياً عاماً يشترك فيه سواد القوم هو التقليد القديم المستحجر . الاسلام هو رأي عام . النصرانية هي رأي عام . كذلك البنطلون والسترة والقبعة رأي عام . الخلق الأدبي أو الأدب الخلقي الذي تتخلق به أمة من الأمم هو رأي عام . تناول الطعام بأصابع اليد عند البدو هو رأي عام .

ومتى قامت الى جانب كل عقيدة أو عادة أو أي تقليد قديم بدعة جديدة تنازعه مقامه يأخذ ذلك القديم يتداعى ويضعف الرأي فيه ، كلما استفحلت البدعة الجديدة . هكذا البروتستنتية تجاه الكثلكة . الحكم الملكي المطلق رأي عام كان واسع الانتشار . فلما قامت الديموقراطية الى جنبه صار يتداعى ونشأت آراء اجتماعية جديدة . فالرأي العام هنا تقلص أو بالأحرى تفكك الى آراء متعارضة لم يبقَ رأي يقال انه رأي عام . متى تفتت التقليد المستحجر أفل الرأي العام . ونشأت آراء غير عامة . فالرأي العام بكل معنى الكلمة غير موجود . التقليد القديم المستحجر هو الرأي العام الأثري المحفوظ في المتحف الاجتماعي

كفى ما تقدم من تبيان حقيقة الرأي الاجتماعي العام . فلنعطف الآن الى الرأي الاجتماعي

غير العام وهو ما أظن أن الاستاذ سلامة موسى والاستاذ محمد الديب يعنيانه .

وهذا أيضاً غير موجود بتمام معناه . لأن سواد الامة لا يعرفه وان كان يدّعيه . عندنا الآن رأي اجتماعي ويمكنك أن تسميه عامّـاً أيضاً . وهو رأي « الاماني القومية » يمكنك أن تقول لي ان جميع أفراد الأمة يدّعون هذا الرأي كما يدّعون الاسلام مثلاً أو الحكم النيابي أو قدسية مناسك الحج . ولكن هل يمكنك أن تقول لي كم واحد في الأمة من السبعة عشر مليوناً يفهمون ما هي هذه الأماني القومية ؟ وهل الذين يفهمونها يتفقون على معانيها ونصوصها ؟ وهل هم متفقون على كيفية تحصيلها ؟ لعلّ واحداً في الألف يفهمون هذه الاماني . وواحداً في المئة ألف يتفقون على صيغتها ، وواحداً في المليون لهم أساليب مختلفة في كيفية تحصيلها . فانظر إذاً كم حزب في رأي الأماني القومية . بل كم رأي تفرّع من هذا الرأي . وكم عدد المنتمين لأي رأي فيها . فأين هو الرأي الاجتماعي (العام أو غير العام) في هذه المسألة أو في غيرها .

هنا تقول لي نلجأ الى استفتاء الأمة عن طريق مجلس النواب عن أي الآراء أصح أو هو المطلوب دون سواه ، على اعتقاد أن الامة كلها متعلمة ومتنوّرة كالامة الاميركية مثلاً .

نعني اننا نعود الى اشتراط شرطي الاستاذ سلامة موسى للحصول على رأي أكثرية الأمة أي أن يكون أفراد الامة جميعاً قادرين على تحصيل الثقافة الكافية للحكم بين الجيّد والسيء . وثانياً أن تكون لهم حرية الكلام في اختيار الرأي الذي يستحسنونه .

جميع الامم العربية (ولا يهمنا غيرها) غير حاصلة على أي شرط من هذين الشرطين لا المعرفة ولا الحرية . لأن النظام الديموقراطي عندنا صوري لا حقيقة له لسببين : أولاً لأن الجهل يسود الجانب الأكبر من هذه الأمم ، وثانياً لأن الأخلاق ضعيفة جدّاً . وكلا العيبين مستفحلٌ والله أعلم بالوسيلة الناجعة في علاجهما .

حتى في البلاد الراقية ثقافة وأخلاقاً لا تضمن وجود رأي اجتماعي عام تحسبه هو رأي الأغلبية الساحقة حتى ولا رأي الأكثرية لكي تسميه تجوزاً رأياً عامّاً . لأن هناك عوامل كثيرة تفسد الرأي العام الاجتماعي وتنقض الحرية . كفى بالقوة الرأسمالية إفساداً وقتلاً للحرية . وأخيراً أرجو المعذرة من حضرة الكاتبين الاديبين اذا كان في مقالي ما لا يروق لهما .

نقولا الحداد

صيرورة سوريا
في التفكير السوري

في هذه الحقبة من التاريخ التي ألقي فيها السلاح ، وأقفرت الميادين من الجنود ، وخلا الفضاء من الطائرات ، وسكت المدفع ، وانتزعت الأمانة الكبرى من عنق الجندي ووضعت في عنق دهاقين السياسة ورجال الفكر ، في هذه الحقبة من التاريخ التي تهتم فيها الأمم بمصائرها ، وتسعى سعياً حثيثاً للفوز بتسوية مشاكلها الداخلية والخارجية ، ما هو المصير الذي نهدف اليه نحن السوريين المنتشرين في جميع بقاع الوطن السوري الطبيعي ، بعد ما نالت بعض أجزاء وطننا استقلالاً سياسيًّا نسبيًّا وانخرطت في مؤسسة شبه دولية هي « جامعة الدول العربية » وساهمت في عضوية « جامعة الأمم المتحدة ؟ » اننا قطعنا شوطاً بعيداً في مضمار الاستقلال السياسي مهما يُقل في الأسباب التي أدَّت الى هذا الاستقلال ، ومهما يُعزَ من الفضل الى الظروف المواتية والملابسات السياسية التي أسفرت عن هذا الاستقلال .

من الطبيعي والمألوف أن يقع اختلاف في الرأي بين أبناء الوطن الواحد حول قضية أو نظرية في شئون الاقتصاد أو الاجتماع أو أنظمة الحكم أو شكل الحكومة ، أو شئون العمل وحق العمال وما شابه ذلك . وكثيراً ما يكون الاختلاف محمود العاقبة في مثل هذه الأحوال . لكن السوريين تضاربت آراؤهم حول الوطن وحدوده ومقوّماته الجغرافية والتاريخية والقومية . هناك من يعتقد أن الوطن السوري ، بوصفه الطبيعي ، ليس كلاًّ قائماً بذاته ضمن الاطار العربي ، وليس له مقوّمات ذاتية البتة ، بل يراه جزءاً لا يتجزأ من أمبراطورية عربية مترامية الأطراف تمتد من الخليج الفارسي شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً . فسوريا جزء من هذا الوطن الضخم كما أن حيًّا من الأحياء في مدينة جزء من تلك المدينة . وكذلك قل عن مصر والعراق والحجاز ... وغيرها من الأقطار العربية اللسان ويعتبرون

جميع الشعوب التي تقطن هـذه الأقطار تؤلف أمة واحدة لها جميع المقوّمات الجغرافيـة والتاريخية والأثنولوجية بالاضافة الى التراث الديني ، وان تعددت مذاهبه وتنوّعت فرقه ، والتراث اللغوي وان اختلفت لهجاته وتلوّنت ثماره . فجامعة الدول العربيـة التي تمخضت عنها الحرب الأخيرة ينظر اليها السوريون نظرتين جدّ مختلفتين : فالغلاة منهم يرون فيها نواة صالحة لنشوء الدولة الواحدة ، يشمل سلطانها وقوانينها وأنظمتها جميع الأمم العربية اللسان . وفريق آخر يراها خطوة محمودة ، جليلة الفائدة، عظيمة الخير نحو اتحاد عربي أقوى وأمنع وأبعد مرمى ، يجعل من أقطار العالم العربي المتضامنة حصناً منيعاً يقيها شرور المطامع الأجنبية الاستعمارية ، دون أن يزيل الاستقلال الذي يتمتع به كل قطر من أقطار الأسرة العربية . وأصحاب هذا الرأي لا يعزب عن فكرهم ثقل الرباطات السياسية الدولية وقوتها وجشع الاستعمار الذي يسعى جاهداً ليحول دون تحقيق تلك الأمنية الحلوة .

مما لا مشاحة فيه ، ان العالم العربي في حالته الراهنة ليس أمة واحدة استوفت جميع الشروط والخصائص التي تكوّن الأمم ، بل هي مجموعة أقطـار مختلفـة ، تتخللها حواجز طبيعية ، يقطنها أقوام اختلفت أجناسهم وميزاتهم وخصائصهم النفسية والفكرية وغير ذلك من الفوارق الاجتماعية والجسدية . بيد أن سكان هذه الأقطار يكادون يجمعون على الايمان بدين واحد ويتكلمون لغة واحدة . فهل يحقق العلم الواحد فوق كل بقعة يرن فيها اللسان وتنتشر فيها العقيدة الدينية ؟ أي هل تتمدَّد الدولة بقدر ما تنتشر اللغة والدين ، وأن الأمة تتبع الدولة في حال تقلصها وامتداد نفوذها ؟ اننا بذلك نخرج الأمة عن المصطلح العلمي لنجعلها غير خاضعة لتعريف على الاطلاق . فالعالم العربي اليوم يتكوّن من أمم عربية تقطن شبه الجزيرة العربية ، وأمم مستعربة تقطن خارج شبه الجزيرة العربية . ولا تختلف العلاقة بين الأولى والثانية عن العلاقة القائمة بين الأمة الانجليزية مثلا والأمبراطورية البريطانية . فالأمة الانجليزية هي مجموعة أفراد الشعب الذي يعيش فوق الجزر البريطانية منذ أقدم العصور حتى الآن : وانها في اتساعها وتضخمها ونموها لم تشمل وتتمثل جميع الشعوب التي تخضع لها والتي تربطها بالتاج البريطاني علاقات سياسية أو لغوية أو دينية أو استعمارية .

ويقيني، أن الباعث الذي يحدو ببعض السوريين الى نشدان دولة لاتنحسر حدودها عن التخوم التي بلغتها أمواج الفتح العربي عند ما انطلق العرب من جزيرتهم في القرن السابع للميلاد لغزو العالم ، هو أن أمبراطورية اسلامية عربية عاشت ردحاً من الزمن وبسطت سلطانها على هذه الأقطار جملة ، فلماذا لم يعد في الامكان في هذا العصر السعي لتكوين دولة أخرى على غرارها ؟ ووجه الخطأ في هذه النظرية الاجتماعيـة التاريخيـة النفسية هي أنهـا تستوحي ذلك المبدأ الفاسد الذي يزعم أن التـاريخ يعيد نفسه . فالتاريخ لا يعيد نفسه كما يعاد النظر في التجارب العلمية مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة .والنقطة الجوهرية التي لم يفطن إليها دعاة الأمبراطورية العربية من السوريين هي أن اتحاد هذه الاقطار لم يكن تلقائيـّـا ، بل كان ثمرة الفتوحات ، وأن شعباً باسلاً طموحاً ، ليس لطموحه حد ، اكتسح هذه الأقطار وأزال عنها ظل شعوب أعرق منه في الملك . فأين لنا تلك القوة العسكرية والعزم الفتي والايمان المتوهج بالحق في الحياة حتى نبلغ ما بلغه العرب القدامى ؟

ولنا أن نسأل : « هل من الخير أن تتنازل جميع الأقطار العربية عن استقلالها الذاتي وتندغم جميعها في دولة واحدة ؟ وإذا قدّر لهذه الوحدة السياسية أن تتحقق ، فأين عسى يكون مركزها ، وكيف يكون شكل الحكم فيها ، ومن عساه أن يكون ذلك الملك أو الرئيس أو ماشئت من الألقاب والرتب ؟ أرى يومئذٍ أن سكان العالم العربي سينصرفون عن الكفاح ضد الاستعمار ويتنكبون سبل الرقي والحضارة ، ليلهوا بسياسة العروش ويجعلوا من أنفسهم بخوراً يحرق في مجمرة الأنانية والمآرب .

إنه كفر بحق العرب والعروبة أن نضع نصب أعيننا الممالك التي دوّخوها والعروش التي ثلوها ونبكي ملكاً مضاعاً ونصم الآذان بمفاخرهم وأمجادهم ونأبى أن نلقح أنفسنا بذلك العزم البكر والبطولة الأسطورية التي ظفرت بالمجد والكرامة والخلود . إنه غرور أن نتخيل إمبراطورية شاسعة وبلادنا مجزّأة ، مقطعة الأوصال والأجنبي جاثم على صدرنا ولا حول لنا ولا طول . إنه تهرّب من الواقع وجريمة بحق سوريا أن نستنكف عن النظر إلى القيود التي تكبلنا والحواجز المصطنعة التي قضت بها الشهوات الاستعمارية الطامحة إلى النفوذ والاستغلال والسيطرة . إنه ضعف وانحطاط أن لانجعل مخيلتنا إلا بالامبراطوريات ونحن

لا نزال مضطرين إلى قوة تصون استقلالنا وترعى وحدة وطننا وتقضي على النزعات الاقليمية التي ترتكز على أصول مذهبية أو عنصرية أو لغوية .

وفي الزمن الذي تصرَّمت فيه الحبالُ بين الدين والعلم ، والدين والسياسة في سائر البلاد المتمدنة الراقية ، سواء كان الباعث على ذلك مقتاً للدين واعتباره عقبة كؤوداً يجب إزالتها كي يتسنى للمواكب البشرية أن تسير سيراً مطرداً بدون تلكؤ ، أو حرصاً على الدين وصيانته من أدران الدنيا وإعادته إلى الحقل الذي خلق ليعمل فيه ، في هذا العصر الذي قضي فيه على الدين أن يقصر عمله على شؤون الروح ويتخلى عن شؤون الدنيا من سياسة وغيرها ، نرى جماعة من السوريين العاملين في الحقل السياسي يفكرون تفكيراً لاهوتيًّا ويرون انه لا بدَّ من إقحام الدين ورجاله في شؤون السياسة . ويقولون ويؤمنون بالدولة الدينية ، ليتدرَّجوا منها فيما بعد إلى القول والعمل في سبيل الجامعة الدينية . كان هذا الأمر ممكناً ومقبولاً عند ما كانت الفكرة الدينية وحدها مستولية على العقول والقلوب ، وكان الناس يؤمنون أن الملك ظلّ الله فوق الأرض . يرى الأستاذ إسماعيل مظهر ، رئيس تحرير هذه المجلة « إن الإسلام فكرة جامعة . انه دين ودولة ، ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ومهما حاول البعض أن يخرج عن الإسلام هذه الصفة ومهما قيدت نظامات الحكم ، فسيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الإسلام مهما تفرّقت فيه النحل واختلفت المذاهب وتباينت النزعات » .

إننا إذ نقول بوجوب فصل الدين عن الدولة لا نتحدَّى الدين في رسالته السماوية التهذيبية ، ولا نعمل بوحي من الإلحاد يغمر أفئدتنا ، بل إننا نحدد تحديداً واضحاً الحقل الذي لا يجب أن يتعداه الدين كي لا يثير مشاكل وانتقادات . ان دمج الدين في الدولة أمرٌ ممكن في كل دولة تدين رعيتها بدين واحد ، وليس ثمّت ضرر عظيم ينشأ عندئذٍ من الجمع بين النظام الديني والدنيوي على صعيد واحد . لكن بلاداً ، كالبلاد السورية مثلاً تضم أشتاتاً من الطوائف المتكتلة ، المتدابرة ، المتطاحنة ، المتنازعة . كيف تستطيع أن تحيا بهناء في ظل نظام يستنزل أعماله من معتقدات طائفة معينة ، ويستضيء بنور عقيدتها المذهبية ؟ وهل تنظر بقية الطوائف بعين الرضى إلى الطائفة التي تتبوأ مركز الحكم وتصبغ كل

أعمالها بصبغتها الدينيـة ؟ إن القول والعمل بالمبدأ الديني يذكيان الخلافات وما أكثرها ، ويوغران الصـدور بالأحقاد وما أحدها ، ويدفعان إلى الدسّ وسوء الظن ، ويحـدوان بالطوائف الأخرى أن تتكتل وتتراص وتعيش عيشة انعزالية لا تشاركها فيها طائفة أخرى ، وتتولد سدود وحواجز بين رغبات الأفراد الطبيعية في الاجتماع والحياة المشتركة في مختلف النواحي . وقد برهنت الأيام ودلت الوقائع على استحالة نشوء مجتمع بشري قوي على دعائم من التفرقة والتباغض والتنابذ بدلاً من التآخي والمحبة والتعاون . وليس ثمت ضمان يكفل ديمومة الاتحاد القومي واطراد نموّه ، يجمع عند ما تتشتت الأهواء ، ويحزب حين تتوزّع الكلمة ، إلاّ نزع الحواجز بين الطوائف في كل بلاد تعـاني شر التفرقة التي تنبثق عن الطائفية . لأن هدم الحواجز المصطنعة المزيفة المغايرة لقانون الطبيعة والحيـاة يؤدي إلى نشوء القربى ، واتصال الأرحام ، وانبلاج فجر المحبة والأخوة . ولا تقدر الحياة الطويلة المستقرّة القوية لأية دولة ترسو أصولها على الجامعة الدينية ، لأنها تحمل في طياتهـا عنصر الضعف والفناء . فالجامعة العربية ، مثلاً ، ينضوي تحت لوائها شعوب من أمم شتى ، اختلفت لغاتها ومنازعها وغاياتها ، وتباعدت بلدانها وتنافرت مصالحها وتباينت أذواقها وأفـكارها فلا تقر مبدأً واحداً ولا تتفق على السعي نحو غاية واحدة .

إننا استيقظنا من سباتنا الطويل منذ أمد قصير ، فهالنا التقدم الذي أحرزه الغرب المسيحي في جميع ميادين الحياة ووجدنا أنفسنا مكبلين بقيود قيدتنا بها دول مسيحية ، فخُيِّل الينا أن سياسة الغرب قائمة على الرابطة الدينية لا النزعة القومية والمصالح المادية ، وإننا لا نستطيع أن نرفع الحيف وندفع الـكيد الاّ إذا تعلقنا بأهداب جامعة دينية . ويقيني أن البلاد العربية إذا عنَّ لها أن تلوذ بالجامعة الاسلامية تهوّل بها على دول اوربا أو أميركا المسيحية لتدفع الظلم والسيطرة تشبه مروّض الثيران banderillero الذي يلوّح بخرقته الحمراء كي يهيجها .

***

أحقـًّا ، التبست علينا الأمور وتشابهت المسالك وتعذَّر علينا أن نصيب شاكلة الصواب؟ مما يثلج الصدور ويبعث الأمل في النفوس ، أن فئة من السوريين الذين اتصلوا بالغرب ، وتثقفوا

بثقافته وفقهوا سر نهوضه ورقيه وتقدمه بدأوا يفكرون تفكيراً قويماً ويعرضون الحلول القومية لمشاكلنا الخاصة . ومما لاجدال فيه ، أن القول والايمان بالقوميات في العالم العربي في الآونة الحاضرة ، جرأة عظيمة ونهج جديد في مضمار الحياة . وعلة ذلك أن فكرة الوطن patrie لما تتبلور في أذهان السوريين كافة ، وأننا لم نعتد التفكير القومي الصحيح على نحو ما نرى في ديار الغرب . ويرى الكثيرون من أبناء العالم العربي أن نشوء القوميات في بقاعه آيات تفكك وضعف وانقسام كما ينقسم البيت على نفسه . وأن القول والعمل في سبيل أية قومية كانت ، سورية أو مصرية ، أو عراقية .... محاولة أثيمة ترمي إلى إخراج ذلك القطر من حظيرة العروبة والتنكر لها . وفي الحقيقة ، أن القول بالقومية السورية ، مثلاً لا يخرج سوريا من مجموعة البلدان العربية ، بل إنه يوضح شخصيتها ويميزها كما تتميز شخصية الأخ بين إخوته وأخواته . ولعل العالم العربي يفيد من هذه الأقطار وهي مستقلة استقلالاً ذاتيًّا وتحيا متعاضدة، متساندة ، أكثر مما لو كوّنت دولة واحدة . وهل الجزم جرمنا إذا استوحينا الواقع ، وفكرنا تفكيراً قوميًّا ، والطبيعة قد كوّنت أقطار العالم العربي تكويناً ذاتيًّا ، وفصلت بين قطر وآخر بحدود طبيعية منيعة ، فالجبال الشاهقة ، والبوادي الشاسعة الواسعة التي ينعدم فيها العمران وأسباب الحياة ؟ ولقد أجاد الشاعر السوري إلياس فرحات إذ استطاع أن يعبر عن حدود سوريا الطبيعية بلغة شعرية :

موطني يمتد من بحر المياه ممعناً شرقاً الى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه بجمال فائق حدّ الجمال

وإن للحدود الجغرافية شأناً عظيماً في حياة الشعوب وخلق شخصية الأمة ومميزاتها . إذ أن ضمن هذه الحدود يتم تفاعل الأقوام والجماعات ، ويسهل اندغامها ، وتتولد بين جزيئاتها الروابط القومية الشديدة التي تنبثق عن الاتصال اليومي، والاحتكاك الدائم، والاشتراك العقلي في المصالح المادية المتشابكة . حقًّا إن رقي المواصلات قلل من شأن الحدود الجغرافية ، ويسّر سبل الاتصال ، وإن الأسلحة الحديثة سخرت من المعاقل الطبيعية ، لكن كل وسائل العلم والرقي لا تقضي على شخصية المصري ولا تميت خصائص البيئة المصرية التي لن تنفك تمصّر كل من يستوطنها . فهاهم السوريون الذين نزحوا إلى مصر سواء في القرن التاسع عشر أو في مطالع هذا القرن ، ماذا بقي لهم من خصائصهم السورية ؟ وإن كل وسائل

العلم والمدنية لا تمسخ مقومات السوري ومشخصاته ما دام يعيش فوق أرض سوريا . ثم إن مبدأ القومية السورية لا يرسو على وحدة الجنس والمميزات البدنية والسلالية بل على الواقع الاجتماعي في بيئة طبيعية . فهي تتجاوز النظرية السلالية التي ثبت بطلانها وفسادها والتي لا تتجلى إلاّ في الشعوب المنكمشة في أوطانها ، المنطوية على نفسها . وما من شعب ساهم في بناء صرح المدنيـة استطاع أن يحافظ على نقاء دمه ، وأصـبحنا اليوم نرى في امتزاج السلالات الراقية سبباً من أسباب نشوء العبقريات . يقول إميل لدفج في كتابه « الألمان » في معرض حديثه عن شارلكان : « ليس الجمال أو الذكاء اللذان يبهرانك ، بل العرق . ولما كان دمه خليطاً من سبع أسر حاكمة عرّقت فيه ، أصبح من الجلي أن الانسان يكرم عرقه إذا ساهمت في تكوينه سلالات كثيرة » فالقومية السورية ، كالقومية المصرية ، رسبت خلال قرون عديدة من اتحـاد الأقوام واحتكاك الجماعات التي هبطت سوريا واستوطنتها وتركت آثاراً متفاوتة . إن هذه النظرية تقضي على تفاخر العصبيات السلالية التي تنخر جسم الأمة ، وتئد تناكر المذاهب وتنابذها ، وتستهدف خلق الروح التعاونية بين جميع الطبقات والأجناس . إن مبدأ القومية السورية ليس مجرد نظرية أو مذهب ، بل هو أقرب ما يكون إلى الثورة .

والغاية من السيادة القومية هي الحرية التي تستشعرها الأمة في اتباع الأساليب المثلى لمعالجة المشاكل الناشبة ضمن حدود الوطن . لأن هـذه المشاكل قد توجد في قطر وينعدم وجودها في قطر آخر ، وتتطلب صوغ قوانين تشريعيـة تناسب المرحلة من التطوّر التي بلغتها الأمة . وكثيراً ما تتنوّع المشاكل وأنماط الحيـاة بنسبة قابلية الأمة للتفتح وتنوّع التيارات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمر بالأمة واختلاف البيئة الطبيعية والموقع الجغرافي . فهل يدور بخلد المصري : مثلاً ، إن الأمة السورية تشكو داء التفرقة الذي نشأ عن تعدد المذاهب وتناكرها وأنها تتعطش للاتحاد القومي الذي لا يتأتى إلاّ عندما تصبح الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة ؟ وهل يعلم الحجازي أننا نعاني شرّ رقّين كلاهما وليد الاقطاعية : أحدهما اجتماعي ، عشائري ، ربيب المظالم والمفاسـد وآخر اقتصادي ، طبقي ، تحدر إلينا من العهد التركي ، وهو ثمرة طبيعية لحالة سياسية سيئة ولحياة اقتصادية فاسدة ؟!

ان طبقة قليلة العدد ، عظيمة الاهمية ، تملك معظم الاراضي السورية ، بينما توجد طبقة تؤلف الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب تعيش على حساب الآخرى في حالة لا توصف من البؤس والجهل والهوان فباتت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عظيمة بين الطبقة التي أتخمها الملك والطبقة المعدمة . ومن مساوىء هذه الحالة ، أنها تكون مصدراً للقلق والشكوى ، وسبباً لرجات اجتماعية فجائية ، وبيئة ممتازة لنمو مبادىء متطرفة كالشيوعية التي تلهب مخيلة الفلاح الساذج والعامل البسيط بما تعد من ألوان النعيم الذي تغذى به الأوهام وتتقاضى ثمنه الحافز الانساني والحرية في النهج في مضمار الحياة . ومن حق الفرد على الدولة الذي يعيش في كنفها ويؤلف جزءًا من كيانها ، أن تؤمن له سبل الحياة الهنيئة الشريفة. فهل يسعد المجتمع السوري ما دام النظام الاقطاعي الفاسد قائماً ؟ وهل تقوى أسرة الأمم العربية وتخلو من كل عيب إذا لم تتفرَّغ كل منها للعناية بترقية أحوالها والاهتمام بأمورها الخاصة في جوّ من التعاطف والتعاون والتشاور والتسمح ؟ .

إن النبع إذا ما انبجس من الأرض غزيراً تعدَّدت مجاريه وتشعبت ، وتعالى هديره ، وتكدَّر ماؤه ، وكثيراً ما يجرف التراب ويقتلع الأشجار والصخور . لكن لا بدَّ لقياده من أن يسلس بعد شماسه ، ولمائه أن يصفو بعد كدره ، وأن يقل بعد طغيانه، ويكثر خيره بعد ضرره . ومن خصائص الأمم التي تستيقظ بعد سبات ، وتنهض بعد كبوة ،وتحس دبيب النهضة في مفاصلها كما تحس الحبلى الجنين يتململ في أحشائها ، أن تتعدَّد فيها المذاهب وتتباين المعتقدات وتحترب الآراء . لكن الأيام والحوادث في غربلتها الدائمة للأفكار والعقائد لا تستبقي منها إلاّ الصالح ولا تدخر غير القادر على البقاء . إن هذه الأمم التي تنهض بعد عثارها تشاهد ركب الحضارة قد تقدَّمها كثيراً ، فتحار في أمرها وتتساءل عن السبل التي تؤدي إلى اللحاق به . وعندئذٍ لا مفر لها من الوقوع في القلق والحيرة والاضطراب فهي لا تبغي التخلف عن الركب ، لكنها لا تنفك تتساءل عن أفضل الطرق المؤدية إلى الموكب الذي يسير في الطليعة . فلا بدع أن نرى القلق وتباين الآراء وتعدُّد المذاهب تستحوذ على عقول السوريين الذين بدأوا يدركون أن لهم في الحياة حقـاً وأن للحضارة عليهم واجباً لا تتلكأ في تقاضيه من الشعوب التي تبغي السؤدد والرفعة . ويجب

أن يكون القلق والاختلاف والتردد من أهم خصائص السوري . ولا شرف في ذلك ولاغضاضة . لأن هذه المساوىء المترسبة في أعماق نفسه هي ما ندعوه تركة التاريخ . وللتاريخ تركة ثقيلة سيئة في نفوس السوريين قلَّ أن يضاهيهم فيها شعب من شعوب الارض. لأن شعباً يطوي قروناً تلو قرون ، خاضعاً للفاتحين ، تتسرَّب الى نفسه سيئاتهم وحسناتهم، وجهلهم وعلمهم ، وبرهم وشرهم ، كما تتسرب مياه الأمطار والسيول الى طيات الأرض وما تحمل من الطهارة والقذارة ، لا بد لهذا الشعب الذي أرهقته عوادي الزمان من أن تذهب خصائص رجولته، وتضمحل مواهبه، وتقل آثاره في متحف الحضارة، وتتبدد مآثره في موكب الغزاة الفاتحين ، كما يضيع الجدول في خضم النهر الهادر . فسوريا التي تسعى اليوم جاهدة الى الاتحاد ، لم تتم لها الأيام أن تكوّن متحداً واحداً ، رغم ان الطبيعة كوّنتها رقعة واضحة المعالم ، بارزة الحدود ، لا تتخللها الحواجز ، وحباها الزمان منذ ثلاثة عشر قرناً لساناً واحداً . فمنذ أن تكوّنت الدول ، وما يلازمها من شهوة الفتح والمجد، وزهوة النصر، وسوريا لم تنفك تتلقى جحافل الغزاة . فلم يقدر لها أن تحيا مستقلة، وتستريح من عناء الفتح ومتاعبه ، وتستشعر زهو السيادة والسلطان ، وينتشر اسمها في العالم القديم . ويتوارثها ملوك يحكمون باسمها ، إلا في زمن الدولة السلجوقية السورية . ولو قدّر لسوريا الحديثة رجل كمحمد علي ، يلم شعثها ، ويوحّد أجزاءها ، ويذكي في قلوب أبنائها الروح القومية ، ويلقح حياتهم بالكيان السياسي الموحد ، ويجند منهم جيشاً يسير به للحرب والفتح والمغانم قائد كابراهيم لو خلوا سبيله لبلغ مدًى لا يصح التنبؤ عنه ، لأن ذلك كفر في ذات العبقرية والعزم الفتي والطموح البكر والجد . أقول ، لو قدّر لسوريا ما قدّر لمصر ، لما كنا نختلف على كياننا الوطني والقومي . ولو لم تُمنَ الحركة التي قام بها فخر الدين المعني (١٥٨٥ — ١٦٣٥) ضد العثمانيين بالفشل ، لكان شأننا غير ما هو عليه اليوم . لكنه ناء تحت وطأة المحالفة التي كوّنتها الدولة العثمانية من الأمراء السوريين المشتركين الذين كانت تبضّ لهم . وان المصلحة الذاتية ، هذا الداء المتمكن من نفوس بعض السوريين كتمكن العروق في الأجساد ، أعمى هؤلاء المأجورين عن نبل غايته البعيدة ، فتألبوا عليه وأفسدوا خطته ووأدوا طموحه .

ولن أذهب في الظن بعيداً فألقي على كاهل الفتوحات والسياسة تبعة الخلاف في وجهة نظر السوريين إلى قضيتهم القومية، وضعف الحس الوطني، وكل الصفات الملازمة للشعوب التي رضخت للاجنبي فتفنن في استغلالها وتسخيرها لقضاء مآربه وانتزع من أعماقها روح اليقين بالكفاءة والرجولة وصرفها عن جوهر الأمور إلى عرضها. بل أن هناك عاملاً آخر لم يفطن إليه أحد قبل اليوم. فالآداب العربية القديمة في قسميها: تلك التي صدرت عن العرب الجاهليين، أو التي تحدرت بعد ظهور الاسلام، وليست عربية الروح صرفاً، قد اتخذناها أساساً لثقافتنا التقليدية. وان هذه الآداب خلت خلواً تاماً من فكرة الوطن بمقدماته المعهودة اليوم، ولا أثر فيها للوطنية patriotisme، التي تكلأ هذا الوطن. كان العربي قبل الاسلام تائهاً في خضم القبيلة والحي والعنصرية، فأصبح بعد الاسلام ذرة لا شأن له أكثر من غيره، ولا فضل له على غيره مهما كان لونه وجنسه، في عالم فسيح هو العالم الاسلامي. ويرى الوطن يتمدد بقدر ما تنشر العقيدة الدينية، ويعم اللسان. وما اتخاذ العواصم خارج الحجاز، الوطن الطبيعي للعرب، إلا دليل صادق على أن العقل العربي لم يكن قد تفتح بعد على فكرة الوطن والوطنية. ويسيء التخريج والتعليل والتفسير، ويخضع التاريخ والحقيقة لنزوات طارئة طائشة، من يظن أن كل البلاد العربية اللسان، التي يتكون منها العالم العربي اليوم، كانت قبل الفتح الاسلامي عربية في التربة التي تدوسها الأقدام، والدم الذي يجري في العروق، والكلام الذي تلوكه الألسنة، والثقافة التي تصقل العقول وتهذب الطباع والأذواق، والدين الذي يعتنقه الشعب ويكون تراثه الروحي والخلقي، وان العرب لم تتحرك جحافلهم، وتلتمع أسنتهم، وتتململ أسيافهم في أغمادها، الا لينصروا ويحرروا من نير الفرس والروم اخواناً لهم في العراق ومصر وسوريا والمغرب.. . فالنزعة التي تؤثر عن العرب وتتسم بها الآداب العربية هي نزعة التفردية individualisme. وهي وان تكن من مميزات الشعوب البدائية غير أنها عند العرب ثمرة البيئة الطبيعية التي يأهلونها. فالجزيرة العربية لا يتصل عمرانها اتصالاً مطرداً، بل تتخللها مفاوز سحيقة، وفلوات واسعة، لا أثر للعمران البشري فيها على الأطلاق.

ولذا نبتت في رأسه فكرة القبيلة التي تكون متحده الاجتماعي وتربطه بها روابط

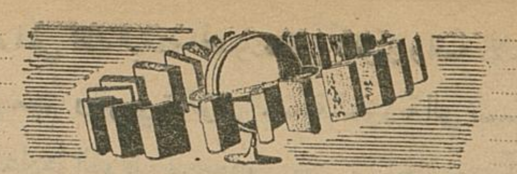
سلالية ، وألف بنظره الحي تلك البقعة المحدودة التي تكوّن واقعه الاجتماعي .

وللموقع الطبيعي سهمٌ وافر في تكوين النفسية السورية التي تتسم بالتفتح والقلق والبعد عن الاستقرار . فامتدادها الطويل من حدود مصر والحجاز جنوباً حتى جبال طوروس شمالاً وموقعها بين البحر المتوسط والصحراء ، ذاك يحمل اليها الروح الخاصة بحوض المتوسط وهذه تحمل اليها روح الحضارة العربية — الاسلامية . هذا الموقع الفريد أخضعها لقوتين تتجاذبانها وسوف تظلان تتجاذبان « ثوبها العصي » الى ما شاء الله من الزمن . أضف الى ذلك نشوء المعاهد العلمية الأجنبية — الى جانب المعاهد الوطنيـة — من أميركية تبث الثقافة الانجلوسكسونية ، وفرنسية تبذر بذور الثقافة اللاتينية ، قد لقحت عقول السوريين بلونين مختلفين من ألوان الثقافة . لـكن هـذه المعاهد العالية أتاحت لفئة من السوريين أن يطلعوا اطلاعاً مباشراً على جميع مناحي الحياة والنشاط الفكري في الغرب . وهناك فريق آخر تثقف بالآداب العربية فقط ، عزف عن هذه الثقافات كلها ، وأكبّ على الكتب العربية القديمة يوليها عنايته وتفكيره واهتمامه . ولذا لا يتملـكنا العجب إذا رأينا فريقاً من السوريين ييمم وجهه شطر المشرق والجنوب ويتعلق بالثقافة الاسلامية العربية لا يرضى عنها بديلاً ، ونرى فريقاً آخر يستوحي الثقافة الغربيـة في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والفنون والآداب والعلوم .

***

كالطبيب الذي يقبل على معالجة العضو الوجع ولا ظلّ للجبن في قلبه ، ولا أثر للتردُّد في يده ، ورائده الخير والسلامة والعافية ، بسائق من هذا الروح كتبنا هذا المقال لنعالج مشاكلنا القومية المتعدّدة ، ويقيننا ان الشعوب القوية في جوهرها ، لا تتلاشى حيويتها بل تظل مكبوتة طيلة عهود الشدة والمحنة والانحطاط . وعند ما تواتيها الظروف وتوائمها الاحوال ، تتفتح هذه الحيوية وتتألق ، فلا بدع عندئذٍ أن تنجب الامة أفراداً يتخطون عصرهم ويقودون أمتهم قدماً الى مراقي السؤدد والمجد والـكرامة .

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب



مكتبة المقتطف

القانون الدبلوماسي

تأليف محمد حسني عمر بك سكرتير عام وزارة الخارجية — المطبعة الاميرية — ٢٩٨ صفحة

التمثيل الدبلوماسي في مصر حديث العهد بدأت البلاد تمارسه منذ اعلان استقلالها ، فكان من ثمّ علماً على نهضتها وايذاناً بتبوئها المكانة الجديرة بتاريخها الحافل وكفاية أبنائها وثروتها.

ولقد شاهدت وزارة الخارجية في غضون الثلاث والعشرين سنة الماضية تقدماً عظيماً تجلى في اتساع أعمالها . فاستحدثت فيها ادارات جديدة تعنى بالمسائل الاقتصادية والثقافية والشئون العربية الى جانب أخرى للمسائل السياسية والادارية . وانتشرت الهيئات الدبلوماسية المصرية من سفارات ومفوضيات وقنصليات في كافة أنحاء العالم تؤدي رسالتها في خدمة المصالح المصرية ، السياسية والاجتماعية والثقافية .

وأدّى انتشار التمثيل الدبلوماسي المصري ورعاية منشئه المغفور له الملك فؤاد الأول وخليفته من بعده جلالة الملك فاروق الأول ، الى سن التشريعات ووضع القواعد الدبلوماسية واقتباس ما يتفق والتشريع المصري من العرف الدبلوماسي الأجنبي . وهكذا نشأ قانون دبلوماسي مصري عني حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد حسني عمر بك سكرتير عام وزارة الخارجية بجمعه مع دراسته دراسة تحليلية في كتاب فريد هو الأول من نوعه باللغة العربية ضمّ بين دفتيه كافة القواعد والأسس الدبلوماسية المصرية مع المقارنة بمثيلاتها في البلاد الأخرى .

وفضلاً عن الناحية القانونية والنظرية للكتاب ، لم يغفل النواحي العملية الدبلوماسية وان مجرّد تصفح الكتاب يظهر مقدار ما بذله مؤلفه الفاضل من جهد وعناية . إذ جمع الى

طرافة الموضوع ودقة البحث ، سلاسة الأسلوب واتزان التفكير .

فبحث في صفحاته الأولى مراسم البلاط مثل التبليغ عن اعتلاء العرش والهدايا والرتب والنياشين وحفلات التتويج والاستقبال والزواج وتبادل التهاني ونظام الأسبقية في الدعوات. وتكلم في بابه الثاني عن وزير الخارجيـة وصفاته ومؤهلاته واختصاصاته وعن وزارة الخارجية المصرية .

وفي فصوله التالية درس منشأ التمثيل الدبلوماسي وحق التمثيل واختيار الممثل والقيود الموضوعة على هـذا الاختيار ودرجات الممثلين الدبلوماسيين وموظفي الهيئة الدبلوماسية وعن الوظائف الدبلوماسية في السلك الدبلوماسي المصري . . . الى غير ذلك من الموضوعات الدبلوماسية الأساسية .

والكتاب في الواقع سفرٌ جامع سدَّ فراغاً في المكتبة العربية وله فائدته الجليلة لرجال السلك الدبلوماسي ومن في حكمهم ، في مصر وفي البلاد العربية التي أخذت حديثاً تتبادل التمثيل الدبلوماسي مع الخارج وتعوزها مراجع في الفقه الدبلوماسي ، وهو لغير الدبلوماسيين متعة وفائدة واطلاع . ولقد وضع المؤلف بكتابه أسس القانون الدبلوماسي المصري الذي سيأخذ — بلا ريب — مكانه قريباً بين فروع القانون الأخرى بفضل تعهد واضعه ورجال السلك الدبلوماسي المصري له ، مهتدين بدراساتهم وتجاربهم .

(١) ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ — جزءان : الاول في ٢٠٧ صفحات والثاني في ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

خلال سني الحرب أصدر مؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك حلقة من حلقات سفره الخالد عن تاريخ الحركة القومية ، وهو كتابه « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » الذي تناول فيه تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨ وقد شئتُ يومئذٍ الكتابة عنه فلم يقدَّر لكلمتي عن ذلك الكتاب أن ترى النور لأن الظلام الذي ساد العالم حينذاك امتدَّ إلينا في رقابة غشوم ، وكانت الحجة في عدم نشر الكلمة أن وقتها لم يكن مناسباً لأن موقف انجلترا وقتئذٍ كان مما لا تحسد عليه ، وكان أعداؤها على أبواب وطننا . فسكتُّ أمام ذلك على مضض ، وكم سكت كاتب ، وكم خفتت أقلام !

واليوم ، يخرج لنا الأستاذ الجليل بقية هذا التاريخ الجليل ، صفحات قريبة الآثار إلى

أبناء هذا الجيل ، صفحات سطرت بدماء الشهداء الأبرار هبّوا يطالبون بحق هذا الوطن المقدّس . ولقد أحسن الرافعي بك حين أخرج للجيل الحديث الناشىء هذا السفر من تاريخ وطنه في هـذا الوقت الذي بدأ فيه كل مصري يطالب بحق وطنه ... فالصورة واحـدة ، والظروف واحدة ، والمأساة واحدة . وعودٌ تخلف ، وأطماع تبدو جشعة نسيت كل ما كانت تعلنه على الملأ من مبادىء تقرير المصير وحرية الشعوب . فصدور كتاب كهذا ليس دعوة إلى ثورة وانما هو تنوير للاذهان وتذكير بالماضي ليبنى الحاضر على أساس سليم. فقد مضت فترة من الزمن بين تلك الثورة ، وما زلنا الآن كأننا لم نتقدم في حدود الزمن إلاّ مدًى يسيراً وما جنته البلاد من هذه الثورة في نواحٍ يكاد يطغى عليه المطلب الاسمى الذي كانت تهدف اليه البلاد حين هبت وقتئذٍ، وتهدف اليه في وقتنا الحاضر . ولـكنها من الثورات التي تحتلّ في الحركات القومية مكانة جديرة بأن تسجل لمصر المجد ولأبنائها الفخر .

والرافعي بك في خلقه وترفعه هو الرافعي في أسلوبه ونظرته لحقائق الحوادث : نزاهة وبعدٌ عن الغرض وتسامٍ عن الحزبيـة ، ونظرٌ إلى الغاية التي رسمهـا لنفسه حين أراد أن يسجل للاجيال القادمة تاريخ وطنهم في أشد مراحله القومية . ومن أجل ذلك كان التقـدير الذي حظى به كتابه عن الحركة القومية .

وقد تناول تاريخ هذه الثورة في ستة عشر فصلاً ، أطلعنا فيها على حالة الوطن خـلال الحرب العالمية الأولى ثم كشف الستار عن الأسباب الحقيقيـة للثورة من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وجلا الحوادث التي تطوّرت منذ انتهاء تلك الحرب الى أن اندلعت شرارة الثورة ، وعرض للقارىء صوراً للثورة لم يشأ أن يمرَّ بها دون أن يسجل فيها أسماء من ضحوا بأرواحهم فيها من الشهداء المجهولين ، ومن ذلك يتضح مقدار الجهد الذي عاناه في سبيل هذه الغاية ، ثم تناول بعد ذلك ما فعلته بريطانيـا للتخفيـف من حدّة تلك الثورة ولـكن الثورة استمرت فتبع ذلك سياسة الاعتداء والاعتقال والمحاكمات ثم وصول لجنة ملنر لتحقيق أسباب تلك الثورة ولتبحث عن الوسائل التي تكفل ملافاة أسبابها في المستقبل ثم استشارة الأمة في مشروع ملنر ، وانتهى المؤلف الجليـل بعد ذلك الى بحث قيم في الثورة وهل نجحت وما هي النواحي التي نجحت فيهـا ثم أعاد نشر الوثائق التاريخيـة التي تعهدت فيها انجلترا بالجلاء عن مصر .

***

هذا عرضٌ سريع لما انطوت عليه صحائف هذا السجل الرائع لحقبة من تاريخنا القومي

يجب أن نعمل على أن يقرأه كل مصري ليعرف الصورة الحقيقية للثورة المصرية التي نعيش في ظلال مجدها و نرى آثارها واضحة ونشهد من عاصروها ومن اكتووا بنارها ، وانها لصفحات خطّها المؤرخ النزيه ، والوطني الصادق ، والباحث الذي لا يضنّ بجهد في سبيل غاية وطنية وأي غاية أسمى منها !

(٢) السيد احمد الفيض أبادي

١٠٣ صفحات من القطع الوسط — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

تناولت في العدد الماضي من هذه المجلة كتاب « محمد بن عبد الوهاب » على أنه أول كتاب صدر في الحجاز من أدب التراجم ، وقد قدّر لي بعد ذلك أن أقرأ الكتاب الثاني من هذا الفن في أدب الحجاز ، وهو حلقة من سلسلة يقوم بوضعها الأديب القدير الأستاذ عبد القدوس الانصاري من أدباء هذا القطر الشقيق العاملين على رفع منار الأدب الحديث هناك بمجلته الناهضة « المنهل » التي تتلاقى على صفحاتها أقلام كبار الكتّاب . وهذه السلسلة هي دراسات عن بناة العلم في الحجاز الحديث . فكانت الحلقة الأولى منها عن السيد أحمد الفيض أبادي مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة التي أخرجت تلاميذ أصبحوا عماد الحركة العلمية هناك والمتزعمين قيادتها .

والأستاذ عبد القدوس أحد تلاميذ السيد أحمد الفيض أبادي الأوفياء ، وآية وفائه هذه الترجمة الرائعة التي ألفها عن حياة هذا الراحل الكريم . وقد تفنن في وضع هذه الدراسة واستطاع أن يصوغها صوغاً قصصيًّا جذّاباً يمتلك حواس القارىء وإعجابه .

ولا غرو فالأدب الحجازي الحديث له من مقومات الحياة والنهوض ما يدعو الى الاعجاب . فقد أخذت النهضة الأدبية هناك تخطو خطًى سريعة في مضمار التقدم ، وذلك برعاية العاهل العربي العظيم جلالة عبد العزيز آل سعود وأمراء سعود المعظمين ، ففي هذا الظل الكريم تنهض حركة مباركة في فنون الأدب والعلم تبشر بمستقبل زاهر للجزيرة العربية يعيد اليها عهدها الغابر ، وفي هذا الظل الكريم تخرج آثار روائع تبعث على الاعجاب والتقدير ، ومن هذه الروائع هذه الحلقة الأولى من تلك السلسلة التي نرجو أن يعمل الأستاذ الأنصاري على إخراجها كاملة في أقرب وقت .

حسن كامل الصيرفي

تغريدات الصباح

نظم محمد الاسمر — نشرته دار المعارف بمصر — صفحاته ٢٤٠ من القطع الوسط

الطابع الذي تنفرد به المدرسة الحديثة في الشعر يبدو جلياً في ذلك الولع باطلاق الخيال في أودية لم تكن مراداً لاستباق قرائح الشعراء. ولا مسبحاً لخواطرهم. ولقد تعود وفي أسلابها ما يروع القلب قسماته، ويسبي الطرف جماله، ويغرى بترداد النظر بهاؤه، ولكن سرعان ما يجنى على روعته، ويتحيف جماله هلهلة الثوب وتواضع الاسلوب، فالعناء في مذهب تلك المدرسة والكد وراء التعابير، والضنى في صقل الأساليب، أيسر من أن يبذل فيه كل هذا الجهد، وهو أهون من أن يستحق هذا الاحتفاء. فما الشعر في نظرها إلاَّ تلك المعاني والخواطر، ترابط بينها وحدة الفكر، ويسلسلها سياق المنطق، ثم تعرض في أي معرض فلا يغض من جمالها، ولا يطامن من عزتها إن أعوزتها زخارف الصناعة الفنية. أما المدرسة القديمة فهي تؤمن بأن المعاني والخواطر أقل شأناً من أن تستغرق نشاط الشاعر بل هي تكاد تكون تحت متناول اليد أو هي ملقاة في الطريق على رأي القدماء. أما تفاوت الشاعر وتبريزه، وامتياز فنه، فبقدر ما يوفق في حوك الحلل التي تخطر فيها معانيه، وجمال الاسلوب الذي تشرف من خلاله. فاذا ما تهيأ للشاعر هذا الوضع فقد شارف ما يشرئب اليه الطامع. وهذا الديوان يمثل تلك المدرسة القديمة تمثيلاً قوياً رائعاً فلا تروعك معانيه — على جمالها وفتنتها — بقدر ما تأخذ بمجامع قلبك رصانة أسلوبه، وروعة بنائه، وجلال فنه الهندسي. دولة المعاني فيه معهودة لك فهي تمت بأقوى الصلات الى تلك البيئة البغدادية في أوج عظمتها الأدبية. وليس هذا يطامن من شأن الشاعر، أو ينتقص من جلاله، ويتحيف شاعريته، ولكنه وفى لبيئته وسليقته، واستجاب لطبعه، فهو سليل بيئة عربية دينية هي البيئة الأزهرية، ترى أثر هذه البيئة العربية الخالصة في متانة أسلوبه، واشراق ديباجته، وتحس أثرها أيضاً في روحه من مجافاة التهويم في أجواء ينفر منها الخلق ويقشعر من التحليق فوقها الضمير الحي. وقد خلص الديوان خلوصاً بعيد المدى من المسحة الدينية التي تلقيها عادةً طول الدراسة الدينية، وحسبك من دراسة تبلغ بصاحبها منزلة صاحب الفضيلة وهو ثمرة ناضجة من ثمار تلك المدرسة ونموذج صادق لهذا النوع من الشعر الذي يطربك جرسه، وتهزك نغماته، ويثير اعجابك نصاعة أسلوبه. وان كانت لا تبلغ منك في كل الأحيان كل هذه المنازل معانيه، ولا تستوقفك الوقفات الطوال مأخوذاً مشدوهاً، فهي من ذلك النوع الذي نعجب به، ولكنه العجب الذي نملك معه الزمام، ونحتفظ بكثير من الهدوء والسكينة، وان كان

فنه الأدائي يبلغ بنا في كثير من المواطن مبلغ الاكبار له ،والشوق لترداد نغماته ، واستعادة ألحانه ، والنشوة لأغاريده .

هلمَّ بنا أيها القارىء نتنقل بين أعطاف هذا الديوان بعد أن أجملنا الخصائص التي تطبع فنَّـه لنتبين تلك المشـاهد التي قدمنا بين يديك وصفها ، ولنعبر في غير مهل ذلك الجانب منه القائم على المناسبات، لأن سماءه قلَّ أن تصفو لقرائح الشعراء،وتحليقهم في آفاقها مضنٍ عسير وقنائصها لا تستهوى الذوق . ولعلَّ الاخفاق المتوالي من جبابرة هذا الميدان يمهدُ العذر للشاعر فلنتخطاه مسرعين ،فلا طائل من طول المكث في ظلال فن المناسبات، ويكفي أن نقف على تلك الينابيع التي هي مجال الشعر ومصدر العواطف . فاليك قصيدته في الحنين .

وطال حنيني حين طالت بي النوى ... فياليت شعري ما يفيد حنيني
إذا غرَّدت ورقاء أو لاح بارقٌ ... ذهلت وسالت بعد ذاك شئوني
يقول أناسٌ أنت تمجن في الهوى ... وكيف بدمعي في الهوى ومجوني
سعادُ أما لي نحوَ أرضك رجعة ... وقد جنَّ من شوق اليك جنوني
يراك فؤادي والديار بعيـدة ... فياليت شعري هل تراك عيوني

ويقول في طلائع الشيب :

أقول والشيب في رأسي طلائعه ... يا شيب ويك أناس أنت أم عجل
قد راعني منـه بضع ما أبينها ... فكيف بي حين أغدو وهو مشتعل
نزعتهـا فتبدَّت بعد ما نزعت ... وكيف يقلي هيئًا ليس ينتقل
يا فحمة الفاحم الغربيب من شعري ... كيف الأماني وقد حلت بك الشعل

هذه المعاني والصور التي يعرضهـا الشاعر من تلك الميادين التي تعد الميـادين الأصيلة لاستباق القرائح الأدبية والـكنز الذي لا تنفد صوره وأخيلته ولـكن الشاعر كان مقتصداً دائماً ، ولعلَّ ولعه بجمال الصناعة وتصيد الجزالة نأى به عن تلك التهاويل والصور التي تعد الهدف الأول للمدرسة الحديثة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

فهرس الجزء الثاني

من المجلد التاسع بعد المائة

ملحق